

الفصل الرابع

أصول عامة في دعوة الأنبياء

- أولاً : الدعوة إلى توحيد الله.
- ثانياً : الدعوة إلى عبادة الله وحده.
- ثالثاً : الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر.
- رابعاً : الدعوة إلى القيام بالقسط.
- خامساً : ارتباط الإيمان بالعمل الصالح.
- سادساً : الجمع بين التبشير والإنذار.
- سابعاً : تحديد قيمة الأشياء.
- ثامناً : عدم ابتغاء الأجر أو سؤاله.

obeikandi.com

أولاً : الدعوة إلى توحيد الله

أرسل الله تعالى الرُّسُلَ دُعَاةً إِلَى الْحَقِّ، وَهُدَاةً لِلخَلْقِ، وَجَعَلَ الْفَوْزَ وَالنَّجَاةَ فِي اتِّبَاعِهِمْ، وَالخُسْرَانَ وَالْهَلَكَ فِي مَخَالَفَتِهِمْ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١) ومنهجُ الرُّسُلِ فِي الدُّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ حَدِيثٌ أَنْ يُتَّبَعَ، وَأَنْ يُقْتَدَى بِهِ؛ وَقَدْ هَدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَاصْطَفَاهُمْ.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنُهُمْ أَقْتَدِ﴾ (٢)

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ (٣)

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (٤)

وَرُسُلُ اللَّهِ جَمِيعًا دُعَاةٌ إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ، هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ﴾ (٥)

(١) النساء : ١٦٥ .

(٢) الأنعام : من الآية ٩٠ .

(٣) الممتحنة : من الآية ٤ .

(٤) الأحزاب : ٢١ .

(٥) الأنبياء : ٢٥ .

دينٌ واحدٌ بُعثَ به الأنبياءُ جميعاً، وأمرَ الرسولُ الخاتمُ ﷺ بالثبات عليه، والدَّعوةَ إليه.

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ ۖ وَقُلْ ۖ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

إنَّ الذي يتدبرُ القرآنَ الكريمَ يعرفُ كنهَ هذا الدينِ وحقيقته.

إنه التوجهُ إلى الله ربِّ العالمين، في خضوعٍ خالصٍ لا يشوبه شرك، وفي إيمانٍ واثقٍ بكلِّ ما جاء من عند الله على لسانِ أيِّ رسولٍ، دون تفرقةٍ بين رسولٍ ورسولٍ. هكذا يُعلِّمنا القرآنُ الكريمُ.

﴿ قُولُوا ۖ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ۖ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ ﴾

ويعلمنا الرسولُ ﷺ أن هذا الدين بُنيانٌ واحدٌ، وأن الأنبياء - جميعاً - لبناؤه ودُعائه، وما أجمل الإنصاف وأنت تسمعه من فمِ الصادقِ الأمين ﷺ وهو يقول فيما رواه مسلمٌ عن أبي هريرة ؓ: « مثلي ومثلُ الأنبياءِ من قبلي، كمثلِ رجلٍ بنى بُنياناً، فأحسنه، وأجمله، إلا موضعَ لبنةٍ من زاويةٍ من زواياه، فجعل الناسُ يطوفون به، ويعجبون

(١) الشورى : ١٥ .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ» (١)

هذه هي حقيقة الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً، ووصّاهم الله أن يُقيموه ولا يتفرّقوا فيه ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (٢) وقد بلغ الرسل ما أمروا بتليغته، وأقاموا الدِّينَ كما أمرهم الله، ولم يتفرّقوا فيه، وإنما وقعت الفرقةُ فيمن أوردوا الكتابَ من بعدهم، فمضت فيهم سنةُ الله التي لا تُحاي ولا تُحامل، ولا تُتبدل ما دامت السماوات والأرض.

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَٰ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝٦٧ ﴾ (٣)

من هنا نستطيع أن نقول: إن العالمَ تجمعه - في الأصل - وحدةٌ دينيةٌ، وأنَّ الفرقةَ في الدِّين هي من صنع الأهواء والشهوات، ويرأ منها جميعُ الأنبياء والمرسلين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۗ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٦٨ ﴾ (٤)

إنَّ رسالات الأنبياء جميعاً دَعَتْ إلى هذا الأصل الخالد «الإيمان بالله»، ولذا نرى الإسلام يُنكرُ على الذين انحرفوا بهذا الأصل، ونسبوه إلى الدِّين ظلماً وزوراً.

(١) رواه مسلم.

(٢) الشورى: من الآية ١٣.

(٣) الشورى: ١٤.

(٤) الأنعام: ١٥٩.

والإسلام في إنكاره الانحراف في العقيدة إنما يردّ الإنسانية إلى وحدة صادقة، في ظلّ توحيد صادق، وهو يُقرّر - على ألسنة الرُّسل جميعاً - أهمّ دُعاة إلى الله وحده، وأهمّ جميعاً ما طلبوا من أقوامهم إلاّ أن يعبدوا الله، ما لهم من إله غيره.

* * *

إنّ منهج الأنبياء في الدُّعوة إلى الله نستطيع أن ندركه من خلال تدبرنا لكتاب الله ﷻ، وقد حفظ الله تعالى الذِّكر لتظلّ الهداية موصولة لا تنقطع إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١)

وفي حفظ الكتاب رحمة بالخلق، وإرشاد لهم إلى ما يحفظ كرامتهم، ويحقق نجاتهم، ويُسدّد خطاهم على صراطٍ مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾^(٢)

وفي حفظ الذِّكر مخاطبة للأجيال كلّها برسالات الرسل جميعاً، وهم يدعون إلى دين واحد لا يتنغى غيره، ولا يُقبل عند الله سواه ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٣)

وبذا تكون الإنسانية كلّها - من بدايتها إلى نهايتها - قد حُوّطت بهذا الدِّين، فلم ينفرد به سابق عن لاحق، أو يستتير بثوره جيلٌ دون جيلٍ.. بل بقي الذِّكر سراجاً

(١) الحجر : ٩.

(٢) الشورى : ٥٣.

(٣) آل عمران : ٨٥.

يُنِيرُ لِكُلِّ حَيْلٍ، وَبِهِ يُخْرِجُ اللهُ مَنْ شَاءَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ
مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ ﴾^(١)

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا آلِكِتَابٌ وَلَا
الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَهَادِي إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾^(٢)

والنورُ حياةٌ للخلقِ أي حياة، وبغيره لا تتحقق للناس حياة، ودينُ الله شمسٌ لا
تغيب، إن بَارَحَتْ رُؤُوسُ قَوْمٍ أَنْارَتْ عِنْدَ آخَرِينَ، ثم عادت إليهم في بُكُورٍ تُوقِظُ
نائِمَهُمْ، وتُنِيرُ الطَّرِيقَ أَمَامَهُمْ، وتُرِيهِمْ رِزْقَ رَبِّهِمْ، وتُلَمُّ التَّبَصُّرَةَ وَالذِّكْرَى بَيْنَهُمْ، وفي
آياتِ اللهِ ﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٤﴾ ﴾^(٣)

والله الذي أبقى الشمسَ ضياءً، حَفِظَ الذِّكْرَ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ. ومنه تُعْرَفُ
رسالةُ الرسل جميعاً، وما أُرْسِلُوا بِهِ، وبه تُوزَنُ أقوالُ الناسِ وأعمالُهُمْ في أيِّ زمانٍ
ومكانٍ، فلا ادِّعَاءُ عَلَى الرُّسُلِ وَالذِّكْرُ قَدْ نُزِّلَ وَحُفِظَ.. لا ادِّعَاءُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْقُرْآنِ
يَنْطِقُ بِالْحَقِّ، وبه يُقَدَّفُ الْبَاطِلُ، فما نطقَ به عيسى عليه السلام في أمرِ الدِّينِ قد جاء به
القرآنُ، وَمَا قاله موسى عليه السلام في أمرِ الدِّينِ قَدْ حَفِظَهُ الْقُرْآنُ، وما جاء به الأنبياءُ

(١) المائة : من الآية ١٥ ، الآية ١٦ بتمامها.

(٢) الشورى : ٥٢ .

(٣) ق : ٨ .

جميعاً نادى به القرآن، ودَعَا إليه.

﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

أليس هذا ما قاله عيسى عليه السلام ودعا إليه ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَنَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ (٢) ؟

أليس هذا ما أمر به الناس على السنة الرسل جميعاً ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) ؟

فلا مجال للتقول عليهم والقرآن يُتلى على الناس، ويرد ما نَسَبَتْه الأهواء إليهم، ويحذر من التفرقة بينهم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (٤) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ الْجُزْءَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٥)

(١) آل عمران : من الآية ٦٤ .

(٢) المائدة : من الآية ٧٢ .

(٣) التوبة : من الآية ٣١ .

(٤) النساء : ١٥٠ - ١٥٢ .

والإنسانية اليوم - وقد تحقق لها من الوسائل ما جعلها تعيش في بيت واحد، يسمع بعضها بعضاً، ويصغي بعضها إلى بعض - عليها أن تستجيب لنداء ربها، رب العالمين، وأن تأخذ بالأسباب التي تحقق لها التعارف كما أمر الله.

﴿ يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴿٣١﴾ ﴾^(١)

إن القرآن الكريم دعوة للناس جميعاً، والرسول الذي بُعث به رحمة للعالمين.. فهل للإنسانية أن تُصغي إلى النداء، وأن تجتمع على كلمة سواء؟! فَرُبُّهَا وَاحِدٌ، وَدِينُهَا - الذي فُطرت عليه، وأُرسل به الرسل جميعاً - دينٌ واحدٌ، والله هو الحق، ولا يقبل الباطل، والكل عائدٌ إليه، ومُحَاسَبٌ بين يديه ﴿ يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقِّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۝ ﴿٢٥﴾ ﴾^(٢)

هل آن للإنسانية أن تُصغي للنداء ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾^(٣)

أخي المسلم: أنت مسئولٌ حيث كنت أن تُنادي بما نادى به الله، وأن تُبلغ رسالة الله في رُشدٍ وحكمة، وأن تلتوا القرآن.

﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْنَا ﴾^(٤)

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النور : ٢٥ .

(٣) آل عمران : من الآية ٦٤ .

(٤) يونس : من الآية ١٠٨ .

ثانياً : الدعوة إلى عبادة الله وحده

ومن الأصول العامة التي اتفقت عليها دعوة الأنبياء جميعاً : الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

ذاك هو الأصل الذي ينشأ عنه إصلاح ما فسد من أحوال الناس، ولم نرَ نبياً من الأنبياء دعا قومَه إلى الإصلاح دون تقريرٍ لهذا الأصل الذي لا تصلح النفوسُ إلا به، ولا يستقيم شأنها إلا بصحته.

ومن تدبّر هذا الأصل في دعوة الأنبياء راعَى اتفاقهم في الألفاظ الدالة عليه، وفي السلوك الموصّل إليه.. والخلقُ جميعاً تَبِعَ لهم، يسلكون سبيلهم، ويتبعون منهجهم، فليس لأحدٍ من الخلق أن يُحدّد - من عند نفسه - مفهوم العبادة التي دَعَا إليها وأمروا بها، ولا أن يُحدِّث - من عند نفسه - في أمرهم ما ليس منه، ولا أن يقول في الله ما لم يقوله، أو يصفه بما لم يصفوه؛ فهم يتبعون ما أوحى إليه، والخلق جميعاً مُطالبون أن يقتدوا بهداهم، وأن يستمسكوا بالوحي الذي جاءهم.

ومن هنا كانت طاعتهم طاعة لله، وعداوتهم عداوة لله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١)

إن طاعة الرسل وأتباع منهجهم، أمرٌ يرتبط بهذا الأصل ولا ينفك عنه.

والرسلُ الكرامُ أسوةٌ للخلق فيما يدعون إليه، فلا يقولون للخلق: اعبدوا الله،

(١) النساء : من الآية ٨٠.

ويتركونهم يُحددون من عند أنفسهم كيف يعبدونه، بل يقولون: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ
وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٢٦﴾

تسمع ذلك من نوح عليه السلام وهو يقول لقومه: ﴿قَالَ يَنْقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٢٦﴾^(١)

وتسمعه من إبراهيم عليه السلام وهو يقول لأبيه: ﴿يَتَأْتِيَنِي قَدْ جَاءَنِي مِنَ
الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ﴿٢٦﴾^(٢)

بل تسمعه من الأنبياء جميعاً وهم يُخاطبون أقوامهم ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿٢٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٢٦﴾^(٣)

كلمات واحدة، تدعو إلى حقيقة واحدة لا اختلاف عليها، ولا تفرقة بين دُعائها.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾^(٤)

* * *

مفهوم العبادة في منهج الأنبياء:

إن الأنبياء يدعون الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، ويُعلمونهم أن عبادته -

(١) نوح : ٢ ، ٣ .

(٢) مريم : ٤٣ .

(٣) الشعراء : ١٠٧ - ١٠٩ ، ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٤٣ - ١٤٥ ، ١٦٢ - ١٦٤ ، ١٧٨ - ١٨٠ .

(٤) الشورى : من الآية ١٣ .

سُبْحَانَهُ - تكون في كلِّ شأنٍ من شئون حياتهم.. فيما يؤمرون به، أو يُنهَوْنَ عنه، فيما يُسرُّون، أو يُعلنون، في خاصة أنفسهم، أو في معاملتهم مع غيرهم.

في كل شيء لهم معالم وحدود تنتهي النفس إليها، دون تعدُّ أو تجاوز. والله بما يعملون محيط.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

وبذا تحض الحياة كلها لمفهوم العبادة، فلا يكون فيها شيء لقيصر، وشيء لله، ولا يكون في ساعاتها ساعة للقلب، وأخرى للرب (كما يقولون) بل كلُّ شيء لله، له

لا لغيره.. لا يُستثنى من ذلك شيء ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣)

ذاك هو مفهوم العبادة في منهج الأنبياء، فلا يُعبَدُ الله في مكان، ويُنسى في آخر، ولا يُتقى في شأنٍ دون شأنٍ، وإنما يُعبَدُ في كلِّ أمرٍ، ويُتقى في كلِّ شأنٍ.

﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤)

* * *

(١) يونس : ٦١ .

(٢) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٣) هود : ١٢٣ .

إن الأنبياء - وهم يبلغون رسالة الله، ويأمرون الناس بعبادة الله وحده - لا يعزلون الناس بعبادتهم عن شئون الحياة، بل يصلحون بالعبادة كلَّ شأن من شئون حياتهم.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۗ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾^(١)

دعوة إلى عبادة الله تمتد إلى كلِّ شيء، وتقرن بالأمر والنهي.. النهي عما يُسئ إلى الغير، أو يُنقصُ الحق ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾، والأمر بما يُحققُ الوفاءَ في أداء الحقوق، دون بخرٍ أو انتقاصٍ ﴿ وَيَنْقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

بذا تتحقق العبادة، ويُعرف الصادقون، ويُعلم الكاذبون.

ولا تكون العبادة رهبانيةً معزولةً عن الحياة.. وإنما تكون مُحققةً لمعنى الحياة، بما تُملية من صدقٍ، وعدلٍ، وبرٍّ، ووفاء.. وما تأمرُ به من تعاونٍ على البرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.. وما تُحذِرُ منه من جورٍ، وظلمٍ، وإساءةٍ، وإفساد.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۗ

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا
 النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾
 وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا
 الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تُكَلِّفُوا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا
 وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 ﴿٣٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
 سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴿١﴾

أرأيتَ ما وصَّى الله به في هذه الآيات الثلاث.

هل تركتَ شأنًا من شئون الحياة لم تُخضعه لما وصَّى الله به ؟

وهل يكون عبدًا لله من ضييع وصيته ؟

وهل يُعبدُ الله بغير طاعته، واتباع شرعته؟

إن الأنبياء - وهم يُبلغون رسالة الله، ويأمرون الناس بعبادة الله وحده - لا يعزلون الناس بعبادتهم عن ذنبيهم، بل يُصلحون بالعبادة كلُّ شأنٍ من شئون حياتهم، ولا يفسدون؛ فالعبادة تحقيقٌ للخير والبرِّ، ونهيٌ عن الفساد والشر؛ طلباً للمغفرة، ورغبةً فيما عند الله.

إن الفرائض التي أمر الله بها - من صلاة، وزكاة، وصوم - تبقى عند الله

لظهور يكف شره عن غيره، وقد تذهب وتغنى إذا أساء صاحبها إلى غيره.

روي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلَسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلَسُ فَيَنَّا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلَسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضْرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنَيْتَ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ » (١)

إن الدعوة إلى الله في منهج الأنبياء دعوة إلى الاستقامة والإصلاح والظهور. ومن هنا يُعرف لماذا كان عظم الأجر من الله لمن سقى كلباً، أو رفع أذى من طريق، أو أعان ذا حاجة، أو دعا إلى خير، أو أمسك عن شر..

أليس في ذلك دلالة على أن عبادة الله - في صلاة وصيام وزكاة - لا تنفك عن عبادته في معاملة الناس « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » (٢)

وكم من ناس يقع عليهم من عذاب الله ما يقع بسبب ظلم أو اعتداء منهم على غيرهم.

في الصحيحين أن أبا سلمة رضي الله عنه كانت بينه وبين أناس خصومة، فذكر لعائشه - رضي الله عنها - فقالت: يَا أَبَا سَلْمَةَ، اجْتَنِبِ الْأَرْضَ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » (٣)

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَطْمَنَةٌ لِأَخِيهِ - مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ - فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أَحَدَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُحِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ» (١)

وروى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَأَوْجَبَ لَهُ النَّارَ. قَالُوا: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ، وَإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ، وَإِنْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ. قَالَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» (٢)

من هنا يُعلم أن العبادة - في منهج الأنبياء - شاملة لشئون الحياة كلها، وليست في شأن دون شأن.. فالدعوة إلى الله كما تكون في أداء صلاة، تكون في إتيان زكاة، وكما تكون في نية طهر، تكون في استقامة سعي.. هي في المسجد، وفي البيت، وفي الشارع، وفي المزرعة، وفي المصنع.. لا يُعبد الله في مكانٍ ويُتسى في آخر، بل يُذكر في كل شأن، ويُخشى في كل أمر.

وبذا يوجد إنسان الأمن والسلم الذي يأمنه الناس - حيث كانوا - على أموالهم وأعراضهم ودمائهم.

يوجد الإنسان الذي يرجى لكل عصر، ويطلب لكل زمن.. الإنسان الذي تُصان به الحرمات، وتُحفظ الأمانات، وتؤدى الحقوق.. الإنسان الذي ينصر الله في نفسه، بتغليب أمر الله على هواه، ويستجيب في كل شأن لنداء الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٣)

(١) رواد مسلم.

(٢) رواد البخاري.

(٣) النساء: ١٣٥.

ثالثاً : الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر

أخي المسلم : إن منهج الأنبياء في الدَّعْوَةَ إلى الله لا يُعنى يوم الإنسان ويُهملُ غَدَهُ، أو يجعله يعيش لدُنياه ويتركُ آخِرته؛ فإن ذلك لا يتحقق به صلاحٌ وإصلاحٌ.

إن يومَ الإنسان يرتبط بَعْدِهِ، ودُنياه ليست بمعزلٍ عن آخِرته.

ومن عاش لدُنياه دون نظرٍ لعاقبةِ أمره، فَقَدَ العدلَ والاعتدالَ في خاصَّةِ نفسه، وآثر الحياةَ الدنياه، وأخضع عقله وحواسه لها، ورأى نفسه بها.. ولم تكن آياتُ الله الدَّالَّة على الحق عنده إلا سبيلاً للباطل، لا يأخذُ منها تبصرةً وذكرى لمعرفة الله وخشيته، وإدراكِ حِكْمته وقُدْرته، والإعداد لما هو مُقبلٌ عليه من لقاء ربِّه، والحساب بين يديه.. بل يراها لمُتاعه ومأكله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ﴾^(١)

إن عُمرَ الإنسان في الحياة الدنيا هو أقصرُ مرحلةٍ بالنسبة لما بعده، وهو سريع التقضي، سريع الزوال. والمذاهب التي تُلهي الناسَ بدُنياههم، وتشغلهم بها عمَّا هُم قادمون إليه، مذاهبٌ قاصرةٌ عاجزةٌ خادعةٌ، تُمنِّي الإنسان وتُغريه بما لا يبقى له، وتصرفه عمَّا هو باقٍ وصائرٌ إليه.

والوحي الإلهي هو السبيلُ لتبصرةِ الإنسانِ بجميع أمره.. في شئون دُنياه وآخِرته.

من أجل ذلك أُرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ، وأنزلَ الكُتُبَ؛ ليكون الإنسانُ على علمٍ بما

(١) محمد : من الآية ١٢.

غاب عنه، فلا تلهيه الرغائبُ عن العواقب، فيؤثرُ دُنياه ويذُرُ آخرته، فيخسرُ الدنيا والآخرة معاً.. ذلك هو الخسران المبين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۗ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۗ أَحَدًا ۝ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

الوحي - وحده - هو الذي يُنيرُ الطريقَ للإنسان، ويُرِيه مراحلَ سيره - من بداية أمره إلى مُنتهاه - كما يُعلِّمه أن انتقاله من مرحلة إلى أخرى إنما هو بإذن من الله ويعلم منه.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۗ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۗ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ﴿٦﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ﴿٨﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۗ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴿٩﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ﴿١٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ۝ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ۝ ﴿١٢﴾ ﴾ (٣)

آياتُ بَيِّنَاتٍ تُري الإنسانَ نفسه - من بداية أمره إلى مُنتهاه - وتُعلِّمه أن الله

(١) الكهف : ١١٠.

(٢) فاطر : ١١.

(٣) المؤمنون : ١٢ - ١٧.

الذي خلقه ليس بغافل عما خلق ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ (٧)

وما من شأن من شئون الخلق، أو مرحلة من مراحل السير، إلا والله فيها أمر.. وتدبر آيات الله التي أنزلت لترى كيف تُحاط بعلمه، ولا تسكن أو تتحرك إلا بإذنه، ولا أحد يُستأذن في خلق أو موت، بل لله الأمر جميعاً، وإليه يرجع الأمر كله.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٨)
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانَهُمْ الْحَقِّقُ ٱلْأَلَّهُ الْحَكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٠﴾ (١)

هكذا يُحاط الإنسان بعلم الله، فلا يخفى من أمره شيء، وينتقل من حال إلى حال بأمر الله وحده ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١٠) (٢)

وفي ذلك ما فيه من حث على الإعداد والتزود بخير زاد؛ فإن الأجل إذا جاء لا يُؤخر، والموت إذا أقبل لا يُنظره، والرسل المكلفون لا يُفِرُّون ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴾ (١٠) (٣)
 هذا ما أوحى الله به، ويئنه للناس.. والله تعالى سائلهم من بعد ما بيّن لهم الهدى.

(١) الأنعام : ٦٠ - ٦٢.

(٢) لقمان : من الآية ٣٤.

(٣) الأنعام : من الآية ٦١.

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٠﴾ فَلَنَقْضَنَّ
عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧١﴾ ﴾^(١)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَتَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
وَنُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾^(٢)

وفي إسهاد الرُّسل على أممهم - في يوم الجمع - ما فيه من دلالة على عظيم الأمر وخطره، وأنَّ له شأنًا أيَّ شأن.. فالله الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب سيحاسبُ الناس على موقفهم، ويُسألُ من أرسل إليهم، ويُسألُ - كذلك - المرسلون؛ ليعلم الناس جميعاً أنَّ ما جاءوا به من عند الله هو الحق، وأنهم قد بلغوا ما أمروا بتبليغه من وعد الله ووعيده لمن آمن ومن كفر.

وها هم في المشهد الرهيب في يوم الفصل يشهدون، وكل شيء يُصدِّقهم، ولو كان قبلُ من المكذِّبين لهم، الجاحدين لرسالتهم ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾^(٣)

* * *

(١) الأعراف : ٦ ، ٧ .

(٢) النحل : ٨٩ .

(٣) الأعراف : ٥٣ .

ومن رحمة الله بالخلق، ومن الإعذار لهم أن يُخطروا بمثل هذا الموقف قبل أن يصلوا إليه؛ ليعُدُّوا له، وليتزودوا بخير زاد.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (١)

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ ۗ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ (١)

وفي صحيح البخاري وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ((قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: أَقْرَأُ عَلَيَّ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ۗ قَالَ: فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَتُولَاءٍ شَهِيدًا﴾ (٣) قَالَ: حَسْبُكَ الْآنَ، فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ)) (٤)

هكذا رأينا رسول الله ﷺ وهو يستحضر يوم القيامة يبكي هذا البكاء، وكيف لا وهو القائل رضي الله عنه: ((وَاللَّهِ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكُكُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)) (٥)

(١) التغابن: من الآية ٩.

(٢) غافر: ١٦ - ٢٠.

(٣) النساء: ٤١.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه.

بيان العاقبة والتذكير بها:

إن لكل أمرٍ عاقبته، ولكل عملٍ جزاءه.

ومن أيقن بذلك حاسب نفسه ووقاها سوء العاقبة.

وَسُنُّنُ اللَّهِ لَا تُحَابِي أَحَدًا وَلَا تُجَامِلُ بَشَرًا ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ
الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿١٢٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴿١﴾

ومنهج الأنبياء حَقِّيَّ بيان العاقبة.. فهم مُبشِّرون ومُنذِرون.

والقرآن الكريم - الذي حَفِظَ رسالتهم جميعاً، وأوْتُمِنَ عليها - يبيِّن لنا نتائج
الأعمال وعواقب الأمور بما لا يدع سبيلاً لِحُجَّةٍ أو معذرة، ولا يغيب ذلك على مَرِّ
تدبُّر القرآن واهتدى بهُداه.

وكثيراً ما ترى نتائج الأعمال مُتَّصلة بها، غير بعيدة عنها.

﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴿٣﴾

(١) النساء : ١٢٣، ١٢٤.

(٢) النساء : من الآية ١٢٣.

(٣) الزلزلة : ٧، ٨.

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۗ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۗ ﴾ (١)

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۗ وَيُعْظِمِ لَهُ أَجْرًا ۗ ﴾ (٢)

وتكاد تلمس دلالة الشرط والجزاء - أو قل: جزاء الأعمال وما يترتب عليها - في القرآن الكريم كله، حتى فيما ورد بصيغة الخبر ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (٣)

وما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وتراه يُبَصِّرُ قَوْمَهُ بالعواقب، ويحذّرهم من مَعْبَةِ السُّوءِ والميل عن الصراط المستقيم.

تسمع ذلك من نوح عليه السلام وهو يقول لقومه: ﴿ يَنْقُومِ إِلَيَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۗ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۗ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۗ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ ﴾ (٤)

فترى النتائج مُقْتَرَنَةً بما دعاهم إليه، فإن هم استجابوا تحقّق الجزاء، وحسنت العاقبة ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۗ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۗ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۗ ﴾ (٥) وإن أعرضوا وكذبوا، وقع الجزاء، وساءت العاقبة ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَاهُ

(١) الطلاق : من الآية ٢، والآية ٣.

(٢) الطلاق : من الآية ٥.

(٣) الأنفال : ٤٢.

(٤) نوح : ٢ - ٤.

(٥) نوح : ١٠ - ١٢.

وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظِرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابَ الْمُذْرِبِينَ ﴿٧٣﴾ (١)

وتسمع ذلك من إبراهيم عليه السلام وهو يخاطب والده ﴿يَتَأْتِي إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي
مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٧٣﴾ يَتَأْتِي لَا تَعْبُدِ
الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٧٤﴾ يَتَأْتِي إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ
عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٧٥﴾ (٢)

فترى النتائج مقترنة بالقول، في: أمر أو نهي، في اتباع أو إعراض.

وتلمس ذلك منه وهو يخاطب قومه ويدعوهم إلى عبادة ربه.. ترى النتائج
والعواقب فيما ذكرهم به ودعاهم إليه ﴿وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ آعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا
يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٧٤﴾ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى
الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٧٥﴾ (٣)

يذكرهم بالمصير الذي ينتهون إليه، إن هم أصروا على التكذيب سيصيبهم ما
أصاب الأمم من قبلهم ﴿وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴿٧٥﴾ (٤)

(١) يونس : ٧٣ .

(٢) مريم : ٤٣ - ٤٥ .

(٣) العنكبوت : ١٦ - ١٨ .

(٤) العنكبوت : من الآية ١٨ .

وحين يدعوهم إلى عبادة الله وتقواه وينهاهم عن عبادة غيره، يذكر لهم النتائج، ويُصِرُّهم بالعواقب، وأنهم راجعون إلى الله، ومُحاسبون بين يديه، وفي ذلك ما فيه من حثٍّ على تدبُّر العواقب بإحسان العمل، وإخلاص القصد لله.

﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾^(١)

* * *

وبالها من حسرة لأولئك الذين غفلوا عن العاقبة، وأهتَم العاجلة عن الآخرة حين يُسألون فيحيون ﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعَادِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾^(٢)

إن العاجلة التي أحبوها قد ذهبت، والآخرة التي تركوها قد حقت وبقيت، ووقع الخسران لأولئك الذين نسوه من قبل ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٢١﴾ ﴾^(٣)

* * *

(١) العنكبوت : ١٧ .

(٢) المؤمنون : ١١٢ - ١١٦ .

(٣) الزمر : من الآية ١٥ .

وفي العاقبة ترى المكذبين يعلنون تصديقَ مَنْ كَذَّبُوهُ؛ طلباً للنجاة، وترى المصدِّقين - وقد فازوا - يعلنون الحمدَ لله، وترى هؤلاء وأولئك يقولون: ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾^(١)

يقولها أهلُ الإيمانِ حمداً وشكراً أنْ وفقهم اللهُ لحسنِ الاستجابةِ له وللرسول، ويقولها أهلُ الكفرِ أسفاً وندماً أنْ عَتَوْا عن أمرِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، يقولونها يومَ ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾^(٢)

ومن قبلُ جاءهم الرُّسُلُ فكذَّبُوهم، وجحدوا بآياتِ رَبِّهِمْ، ونَسُوا لقاءَ يومهم هذا ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ هل يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾^(٣)

هذا ما يقوله أهلُ الكفرِ حين يروُنَ العذاب، يقولون: ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾، وهو قولٌ لا يَنْفَعُ صاحبه وقد كفر به من قبل ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ وقالوا ءَامَنَّا بِهِم وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِمْ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾^(٤)

(١) الأعراف : من الآية ٥٣ .

(٢) الأنعام : من الآية ١٥٨ .

(٣) الأعراف : ٥٢ ، ٥٣ .

(٤) سبأ : ٥١ - ٥٣ .

أما أهل الإيمان - الذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ، وأحسنوا الاستجابة، واستقاموا كما أمرُوا - فذاك جزاؤهم، وهذا قولهم: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجِنَّةُ أُوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

لقد عَرَفُوا - من قبل - صِدْقَ رُسُلِهِمْ، وَأَهْمَ مَا جَاءُوا إِلَّا بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّهِمْ، فَأَطَاعُوهُمْ، وَأَحْسَنُوا أَتْبَاعَهُمْ، فَفَازُوا بِرَحْمَةِ رَبِّهِمْ، وَسَعِدُوا بِجَنَّتِهِ.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَآ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (٢)

* * *

أثر الإيمان بالآخرة والتذكير بالعاقبة في حياة الناس :

إن المنهج الرباني الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ الْأَنْبِيَاءَ يُرِي النَّاسَ حَقِيقَةَ أَنْفُسِهِمْ، وَمَا هُمْ مُقْبَلُونَ عَلَيْهِ، فَمَنْ تَدَبَّرَ مِنْهُمْ - كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - عَرَفَ حِكْمَةَ خَلْقِهِ، وَغَايَةَ وَجُودِهِ، بَلَا إِهْمَامٍ أَوْ غَمُوضٍ، وَرَأَى الطَّرِيقَ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا نَبِيًّا لَا تَخْفَى مَعَالِمُهُ.

(١) الأعراف : ٤٣ .

(٢) فاطر : ٣٤ ، ٣٥ .

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِثْلِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

إن الإيمان بالآخرة يجعل من عمل اليوم عطاءً باراً للغد، يتبع الإنسان فيه الدار الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا، فيحظى العمل بالإخلاص والإتقان والإحسان؛ لأن صاحبه يوقن أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن الله جعل لمن آمن وعمل صالحاً جنات الفردوس نزلًا.

ويقرأ ذلك في آيات ربه؛ تذكراً لمن يخشى.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢)، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (٣)

وبذلك تعلم الدنيا بسعي الآخرة..

إن سعي الآخرة يُرجى في الكلمة التي ينطق الإنسان بها؛ فهو مواخذ بما يقول، فلا يقول إلا حقاً، ولا ينطق إلا صدقاً..

يُرجى في عمل الإنسان وكده وجدّه، وهو يمشي في مناكب الأرض يأكل من رزق ربه.

يُرجى في نية خير، وبسمة بر، وأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس.

(١) الأنعام : ١٥٣.

(٢) الكهف : ٣٠.

(٣) الكهف : ١٠٧.

يُرجى سعي الآخرة في طلب العلم، والسعي له، والصبر عليه..

كما يُرجى فيما بُني الإسلام عليه من فرائض تجمع الناس على الخير، وتزودهم بخير زاد - وخير الزاد التقوى - وتبعدهم عما تسوء به روابطهم، ويفسد جمعهم..

فسعي الآخرة لدنيا الناس - أولاً - إصلاح وإحسان، وبرّ وعدل، بدافع يصاب به عمل الخير من المن والأذى، يفعله الإنسان وهو يخشى مقام ربّه، وينهى النفس عن الهوى، فلا يفعل الخير مرآة للناس، بل يفعله ابتغاء مرضات ربّه، في سرّه وعَلَنِهِ، مع القريب والبعيد، والعدو والصديق.. وفي ذلك ما فيه من تعمير لدنيا الناس بالفضائل والإخلاص؛ فإن الجنة والمغفرة من الله إنما تُطلب بالإنفاق في السراء والضراء، وإخضاع النفس لمرضات الله، والعفو عن الناس، والإحسان إليهم، والتوبة من الإساءة، وعدم الإصرار عليها..

ذاك ما تُطلب به الجنة، وتُرجى به المغفرة.

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالْكُتُبِ الْعَظِيمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾
أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾ ۝ (١)

(١) آل عمران : ١٢٣ - ١٢٦.

أرأيت - أخي المسلم - أن سعي الآخرة صلاحاً لدُنْيَانَا وإصلاحاً فيها، وليس هجرًا لها.

إن سعي الآخرة عمل صالح في تعميمها وأمنها وسلامها، عملٌ يقترنُ بالإيمان، فيحظى بالإحسان، ويسلمُ من الإساءة.. أما حين يُؤثِّرُ الإنسانُ الحياةَ الدنيا، وينسى الآخرة، فإن دُنْيَاهُ ستفقِدُ العدلَ والاعتدَالَ، في ذات النفس وفي معاملة الغير، وسيصبحُ كلُّ شيءٍ عنده محسوباً بالمنافع العاجلة، دون نَظَرٍ للعتبي والآخرة.. مع أن الأصل أن يتغني بالأعمال ما يبقى، لا ما يفنى ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(١)

ولا تَسَلْ عمًا يكون في دُنْيَا الناس - من ظلمٍ وفسادٍ، وبغْيٍ وتسلُّطٍ - إن هُم عاشوا لدُنْيَاهُمْ دون نظَرٍ لأخراهم..

إنهم بذلك يفقدون أمنهم وأمانهم، ولا يُغنيهم - في ذلك - تنافسهم على إحرازِ الكَمِّ من السلاح؛ فإن التنافسَ عليه لا يقفُ عند حدٍّ، ما دام الإنسان لا يقفُ عند الحدود والمعالم التي حدَّدها الله له، وأرسل من أجلها رُسُلَهُ.

ويُحطَى مَنْ يظنُّ أن أمنا يكون بلا إيمان، أو سلاماً - حقاً - يكون بغير اتباعِ شريعةِ الحق والعدل.

إن وسائل البشر - قاطبة - عاجزةٌ عن إيجاد إنسان السُّلم والأمن، عاجزةٌ عن معرفة ما يطويه في نفسه، وبيئته لغيره، والخشية من الله - وحدها - هي القادرة على أن تَمُدَّ الجريمة المبيّنة في نفس صاحبها قبل أن تُؤلِّد، هي القادرة على أن تَمُدَّ جريمة

(١) القصص : من الآية ٧٧.

الغش قبل أن تقع، وأن تصرفها من نفس صاحبها قبل أن تصيب الناس أو توصل الفساد إليهم.

وهل كانت وسائل البشر حاضرة عندما أبت فتاة الشرف والطهر أن تطيع أمها وهي تأمرها أن تضع ماءً على اللبن؛ حتى يزداد دخلها، وتربح مالاً من غشها؟

هل كانت وسائل البشر قادرة على أن تمنع هذا الغش الذي لا زال في حُضن بيت مُغلق؟

لم تمنعه إلا خشية الله، والإيمان بالآخرة.

وهذا ما عبّرت عنه فتاة الشرف والطهر حين قالت لها أمها: « إذا كنت تخافين عمر، فإن عمر لا يرانا »، فقالت الفتاة في رُشد وعِفَّة، وإيمانٍ وصدق: « والله، ما كنت لأطيعه في الملا، وأعصيه في الخلا، وإن كان عمر لا يرى، فإن ربَّ عمر يرى ».

وصدق الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

أخي المسلم :

بهذا المنهج المستقيم - الذي يُبصِّرُ الإنسان بحقيقة أمره من بدايته إلى منتهاه - يتحقق الاعتدال في سلوك الإنسان، فلا يضيع بين الإفراط والتفريط، ولا يهلك بالعلو أو القعود، بل تُتزن خطاه، فلا يعمل لدُنياه وينسى أُخراه، ولا يطلب الآخرة بغير ما شرع الله.

تُتزن خطاه وهو يُوقن أن الحياة الدنيا متاع، وأن للإنسان مراحلَ أخرى ينتقل

(١) المؤمنون : ٦٠، ٦١.

إليها ويحيا فيها.. والأمر في ذلك كله لله وحده، وإليه يرجع الأمر كله..

تترن خطا الإنسان فلا يُشركُ بالله شيئاً وهو يعلم أن أحداً لا يملك مع الله شيئاً، ولا يعيشُ في دُنياه مُضَيَّعاً بين الأسي على ما فات، والفرح بما أُعطى، وهو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه..

تترن خطا الإنسان ويُعطي كلَّ ذي حقِّ حَقَّهُ، فلا يميل مع الهوى وهو يوقن أن الهوى مُضِلُّ مُهلك، وأن النجاة في اتباع الحق والرضى بِحُكمه.

أخي المسلم: ذاك هو منهج الأنبياء في الدَّعوة إلى الله، يُحدِّد للناس كلَّ شيء، ويُريهم ما هم مُقبلون عليه، وقادمون إليه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾^(١)

* * *

(١) الأنفال : من الآية ٤٢ .

ثالثاً : الدعوة إلى مكارم الأخلاق

أخلاقُ هذا الدين مستمدَّةٌ من عقيدته^(١).

وعقيدته - كما نعلمُ - فيها من العمق والثبات والرسوخ ما يُعطي الأخلاقَ نفسَهَا رُوحَ الثبات والقوة والشمول.

وهي ليست نظريات فلسفية، أو مصطلحات علمية تُحفظ ويُقاسُ عليها، أو لا يُقاسُ، بل هي نورٌ تَحيَا مع الوجدان، كما تلتقي مع منطق الفكر وسماحة الفطرة.

واتصال الأخلاق بالعقيدة يمنحها رُوحَ التجرد من المنافع، والتخلص من الرياء الكاذب، فلا ينهي الإنسان عن خُلُقٍ ويأتي مثله، كما لا يتخذ من دعوى الأخلاق سبيلاً للكسب الرخيص، واستغلال البسطاء والسذج، وإنما تقومُ الأخلاقُ في نفسه مقامَ المجاهد في ميدان الشرف والبراعة، يُدافع عن غاية، ويرفعُ سيفه ويخفضه استجابةً لمبدأ، ويُلقى بنفسه في أتون معركةٍ يجودُ فيها بنفسه؛ ليمنح الحياةَ مَنْ وراءه ظافراً بما عند الله.

وكذلك الأخلاق قد تضطرك أن تبدلَ كل مرتخص وغال، ولا تستطيع أن تخرج عن قانونها، أو تخالف حكمها.

فكل خُلُقٍ في الإسلام يرتبط بغايته التي إليها يقصد، وليس للأخلاق إلا غاية واحدة : « الإيمان بالله واليوم الآخر »، وهذه الغاية هي التي تُحدِّدُ الباعثَ على العمل لتتجه به إلى طريقٍ مستقيم.

(١) راجع كتابنا : الدعوة الإسلامية دعوة عالمية.

وقد حدّد رسول الإسلام ﷺ الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته بقوله: « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ »^(١)

فكأن الرسالة التي خَطَّتْ مجراها في تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهداً كبيراً في مدِّ شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشُدُ أكثرَ من تدعيم فضائلهم، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم؛ حتى يسعوا إليها على بصيرة.

والعبادات التي شرعت في الإسلام، واعتبرت أركاناً في الإيمان به، ما هي إلا تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاقٍ صحيحة، وأن يظلّ مستمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيّرت أمامه الظروف، ولهذه السحايا الكريمة - التي ترتبط بها أو تنشأ عنها - أعطيت منزلةً كبيرةً في دين الله.

ففي الصلاة يقول الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ ﴾^(٢)

وعن الغاية من الزكاة يقول تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ۗ ﴾^(٣)

وعن غاية الصوم وثمرته يقول تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾^(٤)

وعن غاية الحج والحكمة منه يقول الله تعالى: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَن

(١) رواد البيهقي في السنن الكبرى.

(٢) العنكبوت: من الآية ٤٥.

(٣) التوبة: من الآية ١٠٣.

(٤) البقرة: ١٨٣.

فَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفْتَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ

﴿١١٧﴾ (١)

ومن الأصول العامة التي اتفقت عليها كلمة الأنبياء: الدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتزكية النفوس بها؛ بدليل قوله ﷺ: « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » (٢)، فكلمة « أتمم » تُشير إلى الجهد السابق لأنبياء الله تعالى في هذا الشأن.

وفيما يلي نعرض لأبرز هذه الأخلاق، وأثرها في حياة الأنبياء.

١- التوكل في حياة الأنبياء :

من البين الواضح في منهج الأنبياء حُسْنُ توكلهم على الله. وهو ناشئ من صدق معرفتهم برَّبِّهم، وإيمانهم بكامل صفاته، وهم بصادق توكلهم على الله يُبلغون رسالة الله في حكمة وثقة، وثبات وصبر، ويُعلِّنون توكلهم على الله وحده وهم يواجهون سفاهة قومهم، وسوء مكرهم وتديبرهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (٣)

إن التوكل على الله في منهج الأنبياء أصل في تحملهم المشاق والمصاعب، وثباتهم في الشدائد، وقيامهم بما أوجب الله عليهم من تليغ وإنذار.. فكم من تأمرٍ وقع على نبي من أنبياء الله فما رأيناه قد وهن لما أصابه في سبيل الله، أو ضعف واستكان. بل رأيناه يصدع بما أمر به؛ موقناً بنصرة الحق الذي يدعو إليه، وأن العاقبة له دون سواه.

(١) البقرة : ١٩٧.

(٢) رواد البيهقي في السنن الكبرى.

(٣) الطلاق : من الآية ٣.

كثيراً ما ترى اعتداءً أولي البغي بقوتهم، وتفاخرهم بجمعهم وسطوتهم، واستخفافهم باتباع الأنبياء، وتسلطهم عليهم، وتماذيبهم في السخرية والكيد، والاستفزاز والصد، وترى المؤمنين بالله يواجهون ذلك كله بصدق التوكل على الله والاستمسك بالحق.

والأنبياء هم أسوة الخلق في ذلك.. أسوتهم في الصبر، والصدق، والثبات على الحق، أسوتهم في صدق الإيمان بالله وحسن التوكل عليه.. لا تستخفهم وسائل الذين لا يوقنون، بل يראون من الشرك مهما كثر جمعه، وبغى أهله، ويعلنون دعوتهم إلى الله، مخلصين له، متوكلين عليه، يخشونه ولا يخشون أحداً سواه.

ولننظر ما كان عليه الأنبياء؛ لتحسين الأسوة بهم، والافتداء بهداهم، والقرآن الكريم يقص علينا من أنبيائهم ما فيه موعظة وذكرى للمؤمنين.

يقول تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَنْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٦٦﴾ ﴾ (١)

هكذا واجه نوح عليه السلام قومه مُعلنًا حُسن توكله على الله، غير آبه بما لهم من جمع أو صد أو كيد.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ

(١) يونس : ٧١.

وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾ (١)

وتسمع هوداً عليه السلام وقومه يريدون أن يسندوا شيئاً لأهتهم الباطله - وهي لا تملك نفعاً ولا ضرراً - ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَضْنَا بَعْضُ آيَاتِنَا بِسُوءٍ﴾ (٢)، هكذا نراهم يعلنون باطلاً وشركاً، ونرى هوداً عليه السلام يعلنُ حقاً وصدقاً، معتمداً على الله، متوكلاً عليه ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٣) مِنْ دُونِهِ ^٤ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٧٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٥﴾ (٣)

وتأتي العاقبة مدمرة لمن كفر وأشرك، مُنْجِيَةٌ لِمَنْ آمَنَ وَأَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ، وَعَلَى رَبِّهِ اعْتَمَدَ وَتَوَكَّلَ ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٧٧﴾ (٤)

وهذا موسى عليه السلام يقول لقومه: ﴿يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٦) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٨﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ (٥)

(١) يونس : ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) هود : من الآية ٥٤ .

(٣) هود : ٥٤ - ٥٦ .

(٤) هود : ٥٨ - ٦٠ .

(٥) يونس : ٨٤ - ٨٦ .

وتأتي العاقبة مُعْرِقَةً مُهْلِكَةً لِمَنْ كَذَّبَ وَكَفَرَ، مُنْحِيَةً لِمَنْ آمَنَ وَأَخْلَصَ لِلَّهِ،
 وَأَحْسَنَ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ بِيوتًا
 وَأَجْعَلُوا بِيوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
 رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا
 عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
 وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
 ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ
 مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ
 كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَن ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ (١)

وعن شعيب التليلا يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن
 قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا
 ؕ قَالَ أُولُو كُنُفٍ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ
 إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا
 كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ
 الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ (٢)

(١) يونس : ٨٧ - ٩٢ .

(٢) الأعراف : ٨٨ ، ٨٩ .

توكَّلْ عَلَى اللَّهِ تُصَانْ بِهِ النَّفْسُ مِنَ الضَّعْفِ وَالِاسْتِكَانَةُ وَالْهَوَانُ، وَتُحْفَظُ بِهِ مِنْ فِتْنَةِ الْحَيَاةِ وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، وَتَظْفَرُ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ، وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَتَمُضِي وَاثِقَةً فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِصْلَاحِ، وَتُعْلَنُ مَا قَالَهُ نَبِيُّ اللَّهِ شَعِيبُ الطَّيْلِيُّ وَهُوَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١)

توكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَا يَقِفُ صَاحِبُهُ مَوْقِفَ سَلْبٍ مِنْ ضَلَالِ قَوْمِهِ وَفَسَادِهِمْ، بَلْ يَنْصَحُ لَهُمْ وَإِنْ أَسَاءُوا، وَيُعْلِنُ بَرَاءَتَهُ مِنْ شُرَكَاهُمْ، غَيْرُ مُبَالٍ بِوَعِيدِهِمْ أَوْ تَهْدِيدِهِمْ، وَكَيْفَ يُبَالُ بِتَهْدِيدِ الْبَاطِلِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ؟!

إِنْ مَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ تَرْتَفِعُ هَامَتُهُ عِزَّةً بَرَبِّهِ، وَيَرَى فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَلَا يَرْضَى بِبَاطِلٍ، وَلَا يَرُكِنُ إِلَى ظَالِمٍ، وَمَنْ أَحْسَنَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ طَلَبَ مَا عِنْدَهُ بِطَاعَتِهِ، وَسَعَى لِمَرْضَاتِهِ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ قُوَى الْبَغْيِ - مَهْمَا عَظُمَتْ - أَنْ تَصْرِفَهُ عَنْ قَصْدِهِ، أَوْ تُبْعِدَهُ عَنْ غَايَتِهِ..

وَتَلِكُ هِيَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ.. ثَبَاتٌ فِي الْقَصْدِ، وَطَمَآنِينَةٌ فِي الْقَلْبِ، وَاسْتِقَامَةٌ فِي السَّعْيِ، وَتَوَكُّلٌ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَثِقَةٌ فِي اللَّهِ لَا تُضَعِفُهَا الشَّدَائِدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهَا الْمَصَائِبُ.. بَلْ تَرْكُو وَتَقْوَى.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ﴾ (٢)

(١) هود : من الآية ٨٨.

(٢) الملك : ٢٩.

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

* * *

أخي المسلم : رأينا ما كان من صدق توكل الأنبياء على الله، وصدق إنابتهم إليه.. وهو أصل في منهجهم وبيانهم في الدعوة إلى الله ﷻ، يُعلنونه لأقوامهم، ويُصِرُّونهم به، ويواجهون به عنادهم وكيدهم ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۗ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢)

بهذا أمروا، وعليه قام منهجهم، واستقامت دعوتهم.

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴾
وَأَنْتُمْظِرُونَا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢١﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۗ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣)
﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤)

إن الأنبياء - وهم دعاة إلى الله - يُخلصون القصد له، ويُحسنون التوكل عليه.

(١) النغبان : ١٣ .

(٢) إبراهيم : ١٢ .

(٣) هود : ١٢١ - ١٢٣ .

(٤) الزمر : من الآية ٣٨ .

وفي منهجهم بيانٌ لحقيقة التَّوَكُّلِ، وأنه أخذٌ بالأسباب دونَ ركونٍ إليها، واعتمادٌ على الله دونَ تفريطٍ في القيامِ بها.. مع اليقين بأن النتائج بيد الله وحده، لا شريك له.

ومن رحمته تعالى بخَلَقه أن هيأ الأسبابَ، وأمرَ عباده أن يأخذوا بها.

وتَرَكُ الأسبابَ معصيةً، والركونُ إليها - من دون الله - ضلالٌ ومفسدة.

ومَن عَرَفَ ذلك اتَّخَذَ من الأسبابِ سبيلاً لمرضاتِ رَبِّه وحُسْنِ التوكلِ عليه، ولم تَصْرِفُه الأسبابُ عن شُكْرِهِ وذكْرِهِ، والتسبيحِ بحمده.

إن التوكل الذي أَمَرَ به الأنبياءُ، ودعوا الناسَ إليه ليس قُعوداً عن الأخذِ بالأسبابِ، وليس قولاً بلا عملٍ.. بل هو يقينٌ وَقَرَّ في القلبِ وصدَّقه العملُ، يقينٌ تنهضُ به النفوسُ بلا قنوطٍ أو يأسٍ، وكيف يتسرَّبُ اليأسُ إلى مَنْ يتوكل على الحي الذي لا يموت؟! أو تقنطُ نفوسٌ تؤمنُ بمن له الخلقُ والأمرُ!؟

إن توكلها على الله يُقَوِّي عَزَمَها، ويُفسحُ أملها، ويُحققُ رجاءها، ويُبعدُ عن ساحتها الضعفَ والاستكانةَ، ويجعلها حيثُ يرضى اللهُ ويُحبُّ، فلا يقولُ القائل: «حسي الله» وهو يَفِرُّ من معركة الحياة، بل يقولها وهو يُلاقِي بأساءَها وضراًها، يقولها وهو يواجهُ سفاهةَ المبطلين وكيدَ المكذِبين.

يقولها إبراهيمُ عليه السلام وهو يُلقى في النار التي أوقدها الأَخْسَرُونَ، ويقولها الرسول ﷺ حين قال له الناسُ ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾^(١) فما أسكتت النارُ قولاً لإبراهيمَ، ولا أقعدت التهديدُ أهلَ الإيمانِ عن متابعة العدو وبهم من الجراحات

(١) آل عمران : من الآية ١٧٣.

ما بهم، بل تبعوهم وهم يقولون: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

فكان التوكل - في الخالين - برّداً وسلاماً على إبراهيم، ونعمةً وفضلاً من الله على المؤمنين.

إنه التوكل الذي تنشط به الحياة، وتقوى العزائم، ويزداد الثبات والإيمان.

وَمَنْ تَدَبَّرَ أَمْرَ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وقد ابيضت عيناه من الحزن؛ أسفاً على يوسف

- يرى ما فعل التوكل على الله في نفس المصاب، وهو يقول لبيه: ﴿يَبْنَئِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (١)

وإنك لتلمس في نفس يعقوب حركة النفس وحركة الحس معاً ﴿أَذْهَبُوا﴾،

﴿فَتَحَسَّسُوا﴾، ﴿وَلَا تَأْيِسُوا﴾.

فأي قوة يمكن أن تُقابل بها أحداث الحياة مثل هذه القوة ؟

وأي رجاء يمكن أن تستقيم معه شئون الحياة بعد هذا الدعاء ؟

إن التوكل على الله لا يدع صاحبه يهوي صريع الأمل واليأس والانقباض، بل

يدفعه إلى عمل الدنيا والآخرة، في ثقة ورجاء وصبر، فيعود بعباء من رحمة ربه،

وفيض من نعمه وفضله، مأجوراً في مُصابه، مُفلحاً في عاقبته.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢)

(١) يوسف : ٨٧.

(٢) الأنفال : من الآية ٤٩.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ
وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۗ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾ ۝ ﴿١﴾

إن اليقين بالله والتوكل عليه باعثٌ على الأمل والعمل، والأمل مع اليقين،
والرجاء مع التوكل ليسا شيئاً مؤقتاً يتحوّل إلى قنوط أو يأس إذا ذهب المطلوب أو
أبطأ المرغوب، بل هو مستقرٌّ في النفس استقرارَ اليقين في القلب، يمتد ويقوى كلما
عظم الكربُ أو اشتدَّ ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۗ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٢﴾ ۝ ﴿٢﴾

هكذا يكون حال المتوكلين على الله، لا يقعدون عن أداء ما أمروا به، ولا
يتخلّفون عن رسولهم فيما دعاهم إليه، بل تراهم حين البأس صابرين صادقين، وفي
ساعة الشدّة مُقبلين مؤمنين أنه لن يُصيهم إلا ما كتب الله لهم، وهكذا يكون توكل
المؤمنين ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۗ وَعَلَىٰ اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ۝ ﴿٣﴾

وهذا ما تراه بيّناً واضحاً في منهج الأنبياء، وما تراه في سلوك أتباعهم من
المؤمنين الصادقين ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ۝ ﴿٤﴾

(١) النحل : ٤٢، ٤١.

(٢) الأحزاب : ٢٢.

(٣) التوبة : ٥١.

(٤) الممتحنة : من الآية ٤.

أخي المسلم : جديرٌ بمن كان على الحق أن يُحسن التوكل على الله؛ فإن التوكل على الله دلالة صدق على معرفة الحق، وما يجب له، وهو عصمة لصاحبه من الركون إلى شيء من الباطل؛ فإن أتباع الحق مخاصمة لأرباب الهوى والباطل، الذين يكرهون الحق، ويضيقون بأهله، ويتكبرون في الأرض بغير الحق.. وهؤلاء لهم وسائلهم في الصدّ والإغراء والاستخفاف والكيد، ولهم مطامعهم في تطويع أهل الحق، وردّهم بعد إيمانهم كافرين.. والتوكل على الله حمى لصاحبه، وحصانة له من الوهن والضعف، واستخفاف أهل النفاق والكفر، التوكل على الله باعث على الحركة في غير بأس، داع إلى الصبر في غير جزع، مُحققٌ للثقة في العاقبة دون شك أو ريب.

إِنَّ مَنْ هُدِيَ إِلَى الْحَقِّ جَدِيرٌ بِهِ أَنْ يُحْسِنَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هَدَاهُ، وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَاهُ اللَّهُ ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا أَنْ نَتَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١)

وهذا أمرُ الله لِنبيه؛ تثبيتاً له، وتعليماً لأُمَّته ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (٢)

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٣) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤)

إن من نتائج العلم بالحق والإيمان به حُسن التوكل على الله، واليقين بنصرتِه،

(١) إبراهيم : ١٢ .

(٢) النمل : ٧٩ .

(٣) الأحزاب : ١ - ٣ .

وحسن عاقبته.. ودلائل الحق آيينٌ من أن تخفى على ذي بصيرة، ومن عرف الحق عرف أهله، وتوكل على الله، لا على غيره.

ولم أر شيئاً تنهض به الهمة، ويتحقق به الثبات، وتحسن به العاقبة، مثل التوكل على الله.. لقد رأينا المسلمين مع رسولهم ﷺ في "أحد" وجراحاتهم لم تتدمل، وقد طمع العدو في العود إليهم، ولكن أهل الإيمان كانوا أسرع وأمضى في متابعتهم؛ استجابة لله وللرسول، وكان لهم من النتائج ما ذكر الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ ﴿^(١)

أخي المسلم: ذاك هو التوكل على الله في منهج الأنبياء. أخذ بالأسباب في بسالة وصدق، واعتماداً على الله تقوى به النفس، ولا تركن إلى هوان أو ضعف، واستجابة صادقة لله وللرسول تحيا بها النفس، وتعود بأجر وفضل ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ^(٢)

* * *

(١) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤.

(٢) الطلاق : من الآية ٣.

٢ - الصدق في حياة الأنبياء :

إن الأنبياء - وهم دُعاة إلى الله تعالى - يُعلمون الناس الصدق، ويدعونهم إليه، ويُبينون لهم آثاره ونتائجه في دنياهم وأخراتهم.

وقد قال النبي ﷺ: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدْقًا، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَابًا »^(١)

إن الأنبياء دُعاة صدقٍ وهم صادقون، لا يرى الناس منهم خلاف ما يقولون، ولا يقولون ما لا يفعلون.

والصدق طمأنينة ونجاة، والناس قد يُخطئون، و« كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَائِينَ التَّوَّابُونَ »^(٢)، ولكن على الناس أن يصدقوا دائماً، ولا يسلكوا بأنفسهم مسلك الكذب في خطأ أو صواب.

إن أخطأوا صدقوا في توبتهم وإنابتهم، وذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم.

وإن أصابوا صدقوا، فأسندوا الفضلَ لله الذي أعانهم ووفّقهم، وهداهم إلى صراط مستقيم « يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ »^(٣)

وما كانت الحياة، وما كان الابتلاء فيها إلا ليَعْلَمَ الله الذين صدقوا، ويعلم

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) رواه مسلم.

الكاذبين. وهو أعلم بهم وبما يُسرون وما يُعلنون، والابتلاء هو الذي يكشفهم أمام أنفسهم، ويميزُ صفوفهم ﴿ التمر ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴿ (١)﴾

وقد جعل الله ما على الأرض زينةً لها ليلبوا الناس أيهم أحسنُ عملاً ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ (٢)﴾
 زينةٌ يُتلى بها ولا تبقى، والإنسان إما مفتونٌ بها، مأخوذٌ بزهرها، يُسئ ولا يُحسن، ويحسد ولا يشكر.. وإما مُدركٌ لها، يعلم أنها متاع، وأن الآخرة هي دارُ القرار، فيخضعُ ذنياه لمرضاتِ ربِّه، فيحسنُ ولا يُسئ، ويشكرُ ولا يكفرُ.

هذا قد سَلَكَ مسلكَ الصدق، فهو مع الصادقين، وذاك قد اتَّبَعَ السُّبُل، فهو مع الكاذبين ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كٰفِرًا ﴿ (٣)﴾

وخلق الله الموتَ والحياةَ ليلبوا الناسَ أيهم أحسنُ عملاً ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ (٤)﴾

* * *

والصِّدْقُ مأمورٌ به في الأحوالِ كُلِّها.. في السِّرِّ والعلَن، والعُسْرِ واليُسْرِ، فيما

(١) العنكبوت : ١ - ٣.

(٢) الكهف : ٧.

(٣) الإنسان : ٣، ٢.

(٤) الملك : ٢.

تُخفيه الصدور وما تُبديه، فيما تنطقُ به الألسنة، وما تكسبه الجوارح، فيما يكون فيه الإنسان، مع نفسه، وفي معاملته مع غيره.

صدق في كل مجال، وفي جميع الأحوال.. في الإيمان، وفي الإنفاق، وفي أداء الصلاة، وفي إيتاء الزكاة، وفي الوفاء بالعهد، في البأساء والضراء وحين البأس..

صدق في المواطن كلها، ينبع من حُسن الصلة بالله، وحُسن التوكل عليه، ومن الإشفاق من خشيته، وصدق الإيمان بآياته.

وذاك هو سبيل البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

إن أهل الصدق يُصدقون الله ورسوله ولا يكذبون، وفي الشدائد يُرددون إيماناً وتسليماً ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (٣)

(١) البقرة : ١٧٧.

(٢) الأحزاب : ٢٢، ٢٣.

هكذا يكون الصدق حين يتلى الإنسان ويمتحن. لا يعرف أهله غير باب الله باباً، وهم موقنون أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ومن أيقن بذلك لزم الصدق، وثبت عليه.

وهذا ما كان من كعب بن مالك رضي الله عنه، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا في غزوة "تبوك"، وتاب الله عليهم؛ لأنهم لزموا الصدق.

يقول كعب - وقد بشر بتوبة الله عليه - : « يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ - مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا - أَحْسَنَ مِنِّي أَبْلَانِي اللَّهُ بِهِ، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ.. وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ - بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ - أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذِبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوا. إِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَّبُوا - حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ - شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، وَقَالَ اللَّهُ: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [١] حَالِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١﴾ »^(١)

هكذا - في أحداث حية - نرى النتائج.. نتائج الصدق لمن صدقوا، ونتائج الكذب فيمن كذبوا.. هؤلاء باءوا بسخط الله وعذابه، وأولئك فازوا برضى الله ورحمته، وسبقت لهم البشرية في دنياهم، وعلا ذكركمهم، وشاع فضلهم، وامتد مع

(١) التوبة : ٩٥، ٩٦، والحديث رواه مسلم.

الأجيال محفوظاً في قرآن يُتلى، فيه تبصرة وذكرى.

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أُنْفُسُهُمْ وَظَنُّوْا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوْا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ﴿١١٨﴾ يَتَّيِبُا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾^(١)

الإنسان - في منهج الأنبياء - يؤمر بالصدق، وللصدق آثاره ونتائجه في دُنيا الناس وآخرهم، ويُحذَر من الكذب، وللكذب آثاره ونتائجه في دُنيا الناس وآخرهم.

قال النبي ﷺ: « إِنْ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْحَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ كَذَابًا »^(٢)

نتائج في الحالين ظاهرةٌ بيّنة. نتائج للصدق تُرى في دُنيا الناس، وتكون في آخرهم. ونتائج للكذب تُرى في حياة الناس، وتكون في آخرهم.

وبيان الأنبياء - وهو وحي من الله - يُري الناس ما هم صائرون إليه ومستهون عنده، يُريهم ما كسبوا وما اكتسبوا؛ لِيُدْرِكُوا النَّتَاجَ، وَيَحْذَرُوا الْعَوَاقِبَ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾^(٣)

(١) التوبة : ١١٨، ١١٩.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الأنعام : ١٠٤.

روي الترمذي عن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - قال: « حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دَعَا مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طَمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكُذِبَ رَيْبَةٌ »^(١)

هكذا يكون المؤمن المتبع لهدي الأنبياء.. يترك ما يشك في حله، ويرتاب في أمره، ولا يدخل مداخل الريبة ابتغاء منفعة عاجلة، أو لذة طارئة، وينأى بنفسه عن الكذب في جميع أمره؛ لأن من تعاطى الكذب ضلّ وفجر، وفقد إيمانه، وخسر دنياه وآخرته ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾^(٢)

وروى الإمام أحمد، عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ قَالَ: فَيَقْصُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصُ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَالَ لَنَا ذَاتَ غَدَاةٍ: إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِلَهُمَا ابْتِعَانِي، وَإِلَهُمَا قَالَا لِي: انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي عَلَيْهِ بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَنْلَعُ^(٣) بِهَا رَأْسَهُ، فَيَتَدَهَّدُهُ الْحَجَرُ^(٤) هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الْحَجَرَ بِأَخْذِهِ، فَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى. قَالَ: قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالَا لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، فَاتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكُلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقْمِي وَجْهِهِ، فَيَشْرُشُرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَاهُ

(١) رواه الترمذي.

(٢) النحل: ١٠٥.

(٣) قِيلَ: أَي يَشْدَحُهُ، وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ جَرِيرٍ "فَيَشْدَخُ" وَالشَّدْحُ كَسْرُ الشَّيْءِ الْأَخْوَفِ.

(٤) قِيلَ: هَذِهِ الْحَجَرُ: الْمُرَادُ أَنَّهُ دَفَعَهُ مِنْ غُلُوِّ إِلَى اسْتِغْلَابِ، وَتَدَهَّدَهُ إِذَا انْحَطَّ.

إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ. قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ الْأَوَّلُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِهِ الْمَرَّةَ الْأُولَى.

وأخذنا يُرياه إلى أن قال لهما: « فإني رأيت الليلة عجباً؟ فما هذا الذي رأيتُ؟ قال لي: إِنَّا سُنْخِرُكَ. أَمَّا الرَّجُلُ الْأَوَّلُ الَّذِي أُتِيَتْ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ رَجُلٌ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أُتِيَتْ عَلَيْهِ يُشْرَشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنَاهُ إِلَى قَفَاهُ وَمَنْجِرَاهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَعْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذِبَ تَبْلُغُ الْآفَاقَ » (١)

تلك هي النتيجة يُبلغها الأنبياء للناس، ويذكرها خاتمهم ﷺ؛ لتكون عبرة لمن يعتبر، وليعلم الناس نتائج أعمالهم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴾ (٢)

* * *

أخي المسلم: الصدق طمأنينة، أنعم به في نفس صاحبه وفي ثقة الناس من حوله.. أنعم به في حقيقته وفي آثاره ونتائجه.. إنه يُعلي شأن صاحبه، وبه تُعصم النفس من الفسوق والفجور، وتسلم من سوء العاقبة.

والصادق أبيض النفس، طاهر الثوب، لا يدخل في ريبة، ولا يتعامل بالكذب. ومن عرف ربه خشية، ومن أيقن بعلمه صدق في ظاهرة وباطنه، وسره وعقله، ويسره وعُسره، وكان مع الصادقين في جميع أمره.

(١) رواه أحمد.

(٢) الزلزلة : ٧، ٨.

أخي المسلم: بالصدق ينعم الناس بحسن الصلوات، ويفوزون برضا الله. الصدق في كل مجال وفي جميع الأحوال.. وهذا ما دعا إليه الأنبياء، وما تسرهم نتائجه وعاقبته.

يقول كعب رضي الله عنه وهو يصف حاله قبل مجيء البشري إليه:

« فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتٌ صَارِحٍ أَوْفَى عَلَيَّ جَبَلٍ سَلَعٍ، بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ، وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ، فَأَوْفَى عَلَيَّ الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ تَوْبِي فَكَسَوْتُهُ إِيَاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعْرْتُ تَوْبَتَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وَأَنْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَتَلَقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا؛ يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ... ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ. قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَهُ قِطْعَةً قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ »^(١)

سرورٌ برحمة الله، وتكريمٌ لمن صدقوا.. وهذا ما دعا إليه الأنبياء، وجاء به من

الله نداءً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾^(٢)

* * *

(١) رواد مسلم.

(٢) التوبة : ١١٩.

٣- الإحسان في حياة الأنبياء:

في منهج الأنبياء دعوة إلى الإحسان.

والإحسان في مفهومه التعبدي « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

وهذا المفهوم مع اشتماله على صدق الإخلاص لله، يتضمّن إتقان العمل وإحسانه.

والله تعالى قد كتب الإحسان على كل شيء، وضمّن أجر صاحبه.

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(١)

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾^(٢)

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ

دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾^(٣)

وكفى المحسنين شرفاً أن يكون لهم من الله الهداية والتوفيق، وأن يفوزوا بمعيته سبحانه.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(٤)

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾^(٥)

(١) الكهف : من الآية ٣٠.

(٢) يونس : من الآية ٢٦.

(٣) النحل : من الآية ٣٠.

(٤) العنكبوت : ٦٩.

(٥) النحل : ١٢٨.

وإذا كان الإحسان مفروضاً في كل شيء، فعلى المؤمن أن يراقب ربه، وأن يحسن عمله؛ لأنه محاسبٌ بما عمل، والله ﷻ لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم بمن أحسن ومن أساء.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١)

أخي المسلم: الله يراك ويسمعك، فأحسن قولك وعملك، وسرك وعلمك، ولا تُرائي الناس فتحسن حين يروك، وتترك الإحسان بعد أن يبعد رقيبهم عنك؛ فإن عين الله تراقبك في خلوتك وجلوتك، ولا تخفى عليه منك خافية ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

إن من تدبر القرآن عرف ما للإحسان من فضل، وما أعد الله للمحسنين من أجر.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٦٦﴾ ءَأَخْذِينَ مَا ءَاتَهُمْ رَبُّهُمْ ءِإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ

(١) يونس : ٦٦ .

(٢) المجادلة : من الآية ٧ .

يَسْتَعْفِرُونَ ﴿١٩﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٠﴾ ﴿١﴾

ونحن نتابع منهج الأنبياء في القرآن الكريم علينا أن نتدبر ما قال الله عنهم؛
لنقتدي بهم، ولتهدى بهداهم.

ففي نوح عليه السلام نقرأ قول الله تعالى: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّا

كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ ﴿٢﴾

وفي إبراهيم عليه السلام نقرأ - وقد قص رؤياه على ابنه -: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

قَالَ يَبْنَؤِي إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْخُكُ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۗ قَالَ يَتَأْتِيَ بَعْضُ

مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ

﴿٦٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۗ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ ﴿٣﴾

وفي موسى وهارون - عليهما السلام - نقرأ قوله: ﴿ سَلَّمَ عَلَى مُوسَىٰ

وَهَارُونَ ﴿١٢٦﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ﴿٤﴾

وفي إلياس عليه السلام نقرأ: ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّاسَ بْنِ مَرْيَمَ ۗ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ ﴿٥﴾

* * *

(١) الذريات : ١٥-١٩.

(٢) الصافات : ٨٠، ٧٩.

(٣) الصافات : ١٠٢-١٠٥.

(٤) الصافات : ١٢٠، ١٢١.

(٥) الصافات : ١٣٠، ١٣١.

إن الإحسان هو منهج سلفنا الصالح في حياتهم كلها، وهم يقتدون بأنبياء الله ورسله، ويهتدون بهداهم.

ومن هنا كان تفوقهم، وكانوا - بإحسانهم - أسوةً لغيرهم.. حسنت أخلاقهم، وحسنت نياتهم، وحسنت أعمالهم، فأحبهم الله، وآتاهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر.

إن تكلموا لم يقولوا إلا حسناً، وإن وعدوا صدقوا، وإن اتُّمِنوا وفوا، وإن عملوا أخلصوا واتقوا.

إن مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فأبصروا.. وأتبعوا السيئة الحسنة، واتقوا ربَّهم، وحالَقوا الناس بخُلُق حسن.

حفظوا الله في جميع أمورهم، فحفظهم الله، واستعانوا به في جميع شئونهم فأعانهم. لم يَضَعُفُوا، ولم يَسْتَكِينُوا.. ولم يطلبوا ما عند الله بأمانٍ المغفرة، بل طلبوا ما عنده بما أمرهم به من عملٍ وإحسانٍ وتقيٍّ وصبرٍ..

أخذوا بالأسباب، ولم يركنوا إليها، فإن ظفروا بنصرٍ أسندوا الفضل لربِّهم، وإن غابَ عنهم النَّصرُ اتَّهموا أنفسهم، فأصلحوا وأحسنوا، وجاهدوا وصدقوا.

لم تُقْعِدْهم جراحاتُهم عن حُسن استجابتهم لله وللرسول، ولم تَشغَلْهم الرغائب عن العواقب، ولم يكن تنافسهم على المغاتم، بل على المكارم..

كانوا محسنين في سرائرهم وضرائرهم، ويُسرهم وعُسْرهم، وسلّمهم وحرّهم، كما علّمهم نبيُّهم ﷺ، وقد كان خُلُقُه القرآن.

أرأيت أن الإحسان منهج الأنبياء، وأنهم جميعاً كانوا محسنين، وأن من سلك سبيلهم، واقتدى بهداهم، عليه أن يُحسن في كل شيء.. في قوله وعمله، ومعاملته مع غيره؛ فإن الله قد كتب الإحسان على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)

* * *

رابعاً : الدعوة إلى القيام بالقسط

إن منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله - كما جاء في القرآن الكريم - جديرٌ أن يُتدبَّرَ، لا من الدُّعَاةِ فحسب، بل من الناس أجمعين؛ فالله ﷻ قد أرسل الرُّسُلَ بالبينات، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بالقسط، وأنزل الأسبابَ التي تُعينُ الناسَ على نُصْرَةِ الحقِّ، وإقامةِ العدل. وفي ذلك ما فيه من مصلحةٍ للناس أجمعين.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١)

إن قيامَ الناس بالقسط غايةٌ عملٌ لها الأنبياءُ، وُبعثوا لتحقيقها ودعوةِ الناس إليها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢)

* * *

والعدل الذي ينشده الأنبياء يقوم على أسسٍ تربوية وفرائضٍ عملية، يؤمن بها الفرد، ويتعاون على تحقيقها المجتمع، ويطماسكُ بها بُنيانُ الدولة أو الأمة.

وهذه الأسس والفرائض تُعينُ الفردَ على أن يُحقِّقَ العدل - أولاً - في ذات

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) النساء : ١٣٥ .

نفسه، بين فضائل رُوحه ومطالب جسده، بلا مَيْلٍ أو جَوْرِ.

وهو السبيل لتحقيقه في معاملته مع غيره، وَمَنْ فَاتَهُ الْعَدْلُ مَعَ نَفْسِهِ كَانَ عَاجِزًا
عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ مَعَ غَيْرِهِ.

من هُنَا كَانَ مَنَهِجُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ مُوجَّهًا لِتَرْبِيَةِ الْإِنْسَانِ، وَهُدَايَتِهِ
لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، عَلَى بَصِيرَةٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَحِكْمَةٍ وَرُشْدٍ.

إِنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُصْلِحُ عِبَادَهُ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ﴾ (١)

وَيُخْطِئُ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَنَهِجَ الْأَنْبِيَاءِ يُمَكِّنُ أَنْ يُسْتَعْتَى عَنْهُ فِي هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ
وَقِيَامِهِمْ بِالْقِسْطِ.. إِنْ النَّاسَ لَوْ تَرَكُوا لِأَنْفُسِهِمْ - دُونَ هُدَاةٍ مِنَ اللَّهِ يَرشُدُوهُمْ -
لَأَفْسَدُوا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا! فَإِنْ مَنْ يُشْرِعُ الْعَدْلَ لِلنَّاسِ جَمِيعًا لَا بُدَّ
أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا عَنْهُمْ، يُحِيطُ عِلْمًا بِجَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، وَاللَّهُ - وَحْدَهُ - هُوَ الْغَنِيُّ عَنِ
الْعَالَمِينَ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وَالْمُتَأَمِّلُ فِي قَوَائِنِ الْبَشَرِ يُدْرِكُ مَا فِيهَا مِنْ عَجْزٍ، وَأُنَانِيَّةٍ، وَقُصُورٍ، إِنْ صَلَّحَتْ
لِنَاسٍ لَا تَصْلُحُ لِغَيْرِهِمْ، وَالنَّاسَ - فِي كَثِيرٍ - تَرْتَبِطُ دَوَافِعُهُمْ بِمَنَافِعِهِمْ، وَلَا تَسْلُ عَمَّا
يَقَعُ فِي الْقَوَائِنِ مِنْ تَضَارِبٍ وَتَنَاقُضٍ إِذَا اخْتَلَفَتِ الْمَنَافِعُ، وَتَبَايَنَتِ الدَّوَافِعُ.

فَمَنْ ذَا الَّذِي يُشْرِعُ لِلنَّاسِ قَوَاعِدَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مَصَالِحَهُ وَهَوَاهُ!؟
أَلَيْسَ مِنْ مَصْلَحَتِهِمْ - جَمِيعًا - أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ الْحَقِّ صَادِرَةً مِنْ رَبِّهِمْ.. وَرَبُّ
الْعَالَمِينَ - سُبْحَانَهُ - مُبْرَأٌ مِنْ اتِّبَاعِ هَوَى، وَمِنْ تَأْثِيرِ حَاجَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ، مُنْزَعٌ عَنِ
قُصُورِ عِلْمٍ وَإِحَاطَةٍ.

(١) الملك : ١٤ .

إن ما يفعله الناس - عند خصامهم - أن يميلوا إلى جهة مُحايدة تحكّم بينهم، لا يكون منها ذو نسبٍ أو قرابةٍ، أو يكون لها مصلحةٌ عند أحد المتخاصمين (ولله المثل الأعلى).

والله غنيٌّ عن العالمين، وليس بينه وبين أحد نسبٍ إلا طاعته، وقد قال تعالى في الحديث القدسي: « يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَيَّ أَثْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَيَّ أَفْجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفِيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » (١)

بذلك تستقيم تربية الإنسان، بالعقيدة الصحيحة، بحسن الاستجابة لله وللرسول، فيكون قيامه بالقسط عبادةً لربه، وعدله - في القول والعمل - قريناً لخالفه، وهو يُوقن أنه مؤاخذٌ بما يقول، مُجازى بما عمل ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٢) ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٣)

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤)

(١) رواه مسلم.

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

(٣) آل عمران : ٣٠ .

إن الله أنزل الكتاب بالحق ليحكم به بين الخلق، وذاك من مقتضيات الحق، أن يكون حكماً بين الناس، ولا يكون غيره، ومصالح الناس لا تستقيم، بل لا تتحقق إلا بحكم الحق، والحاكم بما أنزل الله - وهو الحق - متبع بحكم بما أراه الله، لا بما يميله هواه، واجتهاد المجتهد لتطبيق حكم الله هو اتباع للحق يجعل الله له به فرقاناً ونوراً ومغفرةً وأجرًا، ويهديه إلى سواء السبيل.

إلى ذلك دعا الأنبياء وأمروا به.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴾ (١)

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (٢)

* * *

الأسس التي يقوم عليها العدل:

قلنا: إن العدل الذي ينشده الأنبياء يقوم على أسس تربوية، وفرائض عملية، يؤمن بها الفرد، ويتعاون على تحقيقها المجتمع، ويتماسك بها بنيان الدولة والأمة.

والآن نود أن نتدبر هذه الأسس التي يقوم عليها العدل في منهج الأنبياء، وهم يدعون الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(١) النساء : ١٠٥.

(٢) المائدة : ٤٩.

إن خشية الإنسان من ربه، وإيمانه بحسابه وجزائه أصل في تربية الإنسان الذي يطلب منه أن يقوم بالقسط، ولذا فإنك ترى النداء لأهل الإيمان - أن يعملوا بمقتضى إيمانهم - كثيراً في القرآن الكريم؛ لأن الإيمان هو الدافع لهم في تحقيق ما أمرُوا به، واجتناب ما نُهوا عنه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۗ وَإِن تَلُونَا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ ﴿١٦٦﴾ (١)

والأنبياء جميعاً يُطالبون الناس بتحصيل حقيقة الإيمان قبل مُطالبتهم بما يترتب عليه.

إن مَنْ يُعبدُ ربه ويخشاه تطيبُ نفسه بطاعته وتحقيق أمره، وأنت تقرأ القرآن تراهم يبدعون - أولاً - بدعوة أقوامهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وفي ذلك ما فيه من تربية النفس وإعدادها للقيام بالقسط.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَنْقُومِ رَبُّكُمُ اللَّيْلَةَ بِمَا كُنتُمْ مِّنْ آلِهِ غَيْرُهُ ۗ قَدْ جَاءَ تَكْذُوبًا مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تفسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴿٨٥﴾ (٢)

ذَٰك هو الأصل في تربية الإنسان وإعدادهِ للقيام بالقسط، أن يعبدَ ربه، وأن يخشى حسابَهُ وجزاءَهُ.

(١) النساء : ١٣٥.

(٢) الأعراف : ٨٥.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا الْمَلَكِيَّاتِ وَالْمَيَّمَانِ ۚ إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمَكِّيَّاتِ وَالْمَيَّمَانِ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْثِيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمُحْفِظٍ ﴿٨٦﴾ ۝ ﴾^(١)

بذا يستطيع الإنسان أن يُقيم العدل دون أن تغلبه المؤثرات التي تميلُ به من حُبِّ النفس أو الأهل، ودون خُضوعٍ للهوى الذي يُضِلُّ الناسَ عن الحقِّ؛ إذ لا شيء يُعين الإنسان على تغليب أمرِ الله على هواه، كصِدْقِ إخلاصِهِ لله، وخصيئته منه..

فَمَنْ ذَا الَّذِي يُنصِفُ عَدُوًّا مِنْ نَفْسِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِيمَانٌ بِرَبِّهِ !؟

﴿ يَتَأَيُّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُّوا قَوْمِينَ ۗ لِلَّهِ شُهَدَاءُ بِالْقِسْطِ ۗ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۗ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾ ۝ ﴾^(٢)

وَمَنْ فَاتَتْهُ تقوى الله قد لا يكون منه العدلُ في قولٍ أو فعلٍ، ومنهجُ الأنبياءِ يُطالبُ الناسَ بالعدلِ في كُلِّ شيءٍ، وتقوى الله يُؤمرُ بها الإنسانُ حيثُ كان.

فدوافعُ العدلِ مُلازمةٌ للإنسانِ في سرِّهِ وعَلَنِهِ، وَمَنْ كَانَ دافِعُهُ تقوى الله عدلًا مع العدوِّ والصديقِ، والقريبِ والبعيدِ ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٨﴾ ۝ ﴾^(٣)

(١) هود : ٨٤ - ٨٦.

(٢) المائدة : ٨.

(٣) آل عمران : من الآية ١٠١.

والحُكْمُ بين الناس - وهو يُقَامُ بمقتضى الإيمان وبدافعٍ منه - يتنزّه عن المؤثرات التي تميلُ بالناسِ، من حُبِّهم لأنفسهم، أو مِيلِهِم لذوي قُرْبَاهُمْ، أو انعطافِهِم لصديقٍ، وجفائِهِم لعدوِّ.

والله ﷻ يأمرُ المؤمنين أن يكونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ، غيرَ مُتَّبِعِينَ هَوَى أَنْفُسِهِمْ أو أهواءِ غيرِهِمْ، وَمَنْ تَخَلَّصَ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ كَانَ قَادِرًا - بِعَوْنِ اللَّهِ - أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ هَوَى غَيْرِهِ.

* * *

والتحذيرُ من المَيْلِ، أو اتباعِ الهوى - في تحقيقِ العدل - لا يُلقَى على الناسِ موعظةً بلا حسابٍ عليه أو جزاءٍ لِمَنْ أَحْسَنَ أو أَسَاءَ، بل لا بُدَّ من حسابٍ على ما أُمِرَ الناسُ به، ودُعُوا إليه، حَفِظُوا أم ضَيَّعُوا؟

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (١)

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢)

إن العدلُ في منهج الأنبياء محكومٌ بضوابطٍ ودوافعٍ، تجعل الإنسانَ أمينًا في الأخذِ به، والرِّضَى عنه، والناسُ جميعاً في ساحةِ العدلِ سواءً، لا فَرْقَ بين قريبٍ وبعيدٍ، وعدوِّ وصديقٍ ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۗ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٣)

* * *

(١) الأنبياء : ٤٧ .

(٢) المجادلة : ٦ .

(٣) المائدة : من الآية ٨ .

أخي المسلم: إن قيام الناس بالقسط يرتبط بمنهج قوم، لا ميل فيه ولا عوج، بين واضح، لا إهام فيه ولا غموض.. ومن تدبر قول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١) عرف المنهج، واتبع الطريق، وتجنب السبل المهلكة الضالة التي تميل بالناس عن الحق، وتبعدهم عن الصراط المستقيم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)

إن قيام الناس بالقسط يقترن بما جاء به الأنبياء، ولا ينفك عنه، فالشرع ما شرع الله، والهدى هذاه ﴿وَأَنَّ أَحْسَنَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾^(٣) أفحككم الجهلية يبعثون^٤ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون^(٥) ﴿^(٦)

الشرع ما شرع الله، ولا إيمان بلا خضوع لأمره، ورضى بحكمه، واتباع لرسله ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٧)

(١) الحديد : ٢٥ .

(٢) الأنعام : ١٥٣ .

(٣) المائدة : ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) النساء : ٦٥ .

والقيام بالقسط - في دنيا الناس - لا بُدَّ له من قوةٍ عادلة تردُّ البغي، وتدفع الظلم، وتنصر المظلوم حيث كان، قريباً كان أم بعيداً، عدواً أم صديقاً.. ومن أجل ذلك أنزل الله الأسباب التي جعلها عوناً لنصرة الحق، وإقامة العدل ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾

وإذا كان الله ﷻ قد أنزل مع المنهج الأسباب التي تُعين على تحقيقه، فإن الناس مُمْتَحَنُونَ بهذا وذلك.

مُتَحَنُونَ بالمنهج، أيتعون أم يُعرضون؟!

مُتَحَنُونَ بالأسباب.. أِيخْضَعُونَهَا لِنَصْرِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ؟! أم يجعلونها لأهوائهم، وطلب العلو في الأرض والفساد؟!

هل يَقْصُرُونَهَا على الأدنى؟ أم يطلبون بها الأبقى، وينشدون الفردوس الأعلى؟

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١)

إنه الامتحان للناس، والله غني عن العالمين.

ونصرُ الله في أتباع ما أمر به، ودعا إليه، وفيه مصلحتهم، وفيه نجاتهم، ولن يستطيع أحد أن ينصر الله في معركة حتى ينصره في نفسه، بتغليب أمره على هواه. وبذا يُرجى نصره، ويُطلب رضاه.

﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ

(١) الحديد : من الآية ٢٥.

قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُكُمْ ﴿٤﴾ سَيَدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَهْمِ ﴿٥﴾
وَيَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصُرْكُمْ
وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴿١﴾

إن نصر الله رُسُلَهُ في اتباع المنهج الذي أرسل الله به الرسل، وأنزل الكتاب والميزان.

أخي المسلم: من فضل الله على الناس أن أرسل الرُّسُلَ بالبينات، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، وأنزل الأسباب التي تُعين على نُصرة الحق وإقامة العدل، وجعل امتحان الناس في ذلك، كما جعل جزاءه في الآخرة على عملهم في الدنيا.

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ ﴿٢﴾

ومن تدبّر الأمر عَرَفَ أَنَّ فِي نَصْرِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ تَحْقِيقًا لِلخَيْرِ، وَإِقَامَةً لِلْعَدْلِ،
وَإِشَاعَةً لِلْبِرِّ ﴿ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿٣﴾

علمٌ يترتب عليه جزاء، وعملٌ من الناس تحسُّنٌ به العاقبة أو تسوؤ. والناس هم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، فما كلّفهم به لمصلحتهم، وما دعاهم إليه لفوزهم ونجاتهم.

إن منهج الأنبياء دعوةٌ إلى العمل لنصرة الحق وإقامة العدل، وإخضاع الأسباب

لمرضاة الله، لا لهوى النفس ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْتَدَةُ ﴾ ﴿٣﴾

(١) محمد : من الآية ٤، والآيات ٥، ٦، ٧ بتسامها.

(٢) الزلزلة : ٧، ٨.

(٣) الأنعام : من الآية ٩٠.

خامساً : ارتباط الإيمان بالعمل الصالح

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُخَاطِبُونَ النَّاسَ بِمَا لَا يَلْتَبِيسُ عَلَيْهِمْ، أَوْ يَتَعَدُّ عَنْ فَهْمِهِمْ وَفِطْرَتِهِمْ.

إنهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ

غَيْرُهُ﴾ (١)

والناس لا يجحدون ما للرب من فضل في خلق ورزق، وما له من قدرة في حياة أو موت، فلا يصعب عليهم أن يدركوا ما له من حق في صدق عبادة، وإخلاص قصد. فهم إن طولبوا بتقواه يعلمون أنه جدير أن يتقى، وإن أمروا أن يعبدوه مخلصين له الدين.. يعلمون أنه جدير أن يُعبد.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٦﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (٢)

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٥٠﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ

(١) الأعراف : ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥، هود : ٦١، ٥٠، ٨٤، المؤمنون : ٢٣، ٣٢.

(٢) يونس : ٣١، ٣٢.

شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ (١)

حقائق يُخاطَبُ بها الناسُ ويرونها في الواقع المُشَاهَد، وهي ذاتُ دَلَالَةٍ فيما يُطالَبُونَ به من إيمانٍ واستقامةٍ، وثَقْيٍّ وخَشْيَةٍ.

خطابٌ يُنشِئُ عِلْمًا، وَيُوقِظُ فِكْرًا، وَيُحْيِي قَلْبًا، وَيَزِيدُ إِيمَانًا.

والحقائقُ التي يذُكُرُها الأنبياءُ - وهم يُوحَى إليهم - تُتَّصَلُ بِحَيَاةِ الناسِ ومَصَائِرِهِمْ، وهي لا تُعْرَبُ عن واقعٍ، ولا تُتَأَي عن نَظَرٍ وفِكْرٍ.. ولا يَمُحِذُهَا إِلَّا من عَمِيَّتْ بَصِيرَتُهُ، وَحَقَّتْ ضَلَالَتُهُ، واتَّخَذَ إلهه هَوَاهُ، فما تُغْنِيهِ الآياتُ، ولا تَنْفَعُهُ البَيِّنَاتُ.

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عِثْرَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢)

إنَّ مَنهجَ الأنبياءِ في الإصلاحِ يَقومُ على أساسِ من مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، فَهَم لا يَأْمُرُونَ بِمَعْرُوفٍ وَيَنْهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ مُجَرَّدَ عن صِدْقِ إِيمَانٍ، وإِخْلَاصِ عِبَادَةِ، وَإِنَّمَا يَدْعُونَ إلى عِبَادَةِ اللَّهِ - أَوَّلًا - وَالتَّوَجُّهُ بِالْأَعْمَالِ إِلَيْهِ ثَانِيًا؛ لِيَكُفَّ الْإِنْسَانُ شَرَّهُ عن غَيْرِهِ، وَيُقَدِّمَ خَيْرَهُ.

فارتباط الإيمان بالعمل، والعبادة بالسلوك أصلٌ في منهج الأنبياء.

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) المؤمنون : ٨٤-٨٩.

(٢) الجاثية : ٢٣

عَذَابٍ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَنْقُومِ أَوْفُوا أَلْمِكِّيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ (١)

دعوة إلى عبادة الله - أولاً - وعدم الإشراك به تؤدي إلى الاستقامة والعدل في المعاملة، وتُحقق في النفس رغبة ورهبة.

رغبة في مرضات الله.. ورهبة من مخالفته ومعصيته.

ويُخطئ مَنْ يظُنُّ أَنَّ الإصْلَاحَ يَكُونُ بِمَعزَلٍ عَن مِرَاقِبَةِ اللَّهِ وَخَشِيَّتِهِ، وَأَنَّ الكَفَّ عَن الفِسادِ يَمكُنُ أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَالْيَقِينِ بِحِسابِهِ وَجِزَائِهِ !!

إنَّ مَنهجَ الأنبياء يُعَرِّفُكَ بِرَبِّكَ، وَيَهْدِيكَ إِلَيْهِ؛ لِتَحَقِّقَ الخِشْيَةَ الَّتِي تَجْعَلُكَ تُكْفُ عَنِ الشَّرِّ وَتَفْعَلُ الخَيْرَ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، وَتُمْسِكُ عَمَّا يُطِلُّ عَمَلَكَ مِنْ مَنْ وَأَذَى، أَوْ يُحِيطُهُ مِنْ شِرْكٍ وَرِياءٍ ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (٢)

ولم نر - في منهج نبي من الأنبياء - دعوة إلى الإصلاح غير مُقترنة بقوله:

﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ وذلك لأنَّ الإصْلَاحَ الَّذِي لَا يَقُومُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ يَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ، وَأَنَّ النَفوسَ الَّتِي لَا تَتَرَبَّى عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَخَشِيَّتِهِ، قَلَمَّا تَصْدُقُ فِي اتِّبَاعِ أَمْرِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيٍ.

وَشَتَانِ مَا بَيْنَ أَخْلَاقٍ وَأَخْلَاقٍ..

أَخْلَاقٍ يَكُونُ دَافِعُهَا المُنْفَعَةُ، فَتَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِهَا.. وَأَخْلَاقٍ تَقُومُ عَلَى أُسَاسٍ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَخَشِيَّتِهِ، فَلَا تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الأَحْوالِ، وَلَا تَتَبَايَنُ وَتَخْتَلِفُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

(١) هود : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) النازعات : ١٩ .

سادساً: الجمع بين التبشير والإنذار

في منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تبشير وإنذار.

والتبشير: إخبار فيه سرور، والإنذار: إخبار فيه تخويف.

والله ﷻ قد أرسل رُسُلَهُ مبشرين ومنذرين ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١)
ولكن بأي شيء يُبشرون؟ ومن أي شيء يُخوفون ويُندرون؟
فلنتدبر ما جاء في القرآن الكريم..

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (٣)

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٤) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٥)

(١) النساء: ١٦٥.

(٢) الأنعام: ٤٨، ٤٩.

(٣) الإسراء: ١٠، ٩.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ
 قِيمًا يُنذِرَ بِأَسَا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿١﴾ مَكْتُوبٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٢﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ
 قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾^(١)

الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم المبشرون بأن: لا خوف عليهم، ولا هم
 يحزنون، وبأن لهم أجرًا كبيراً، وبأن لهم أجرًا حسناً، ما كتبت فيه أبداً.

والمكذبون بآيات الله، والذين لا يؤمنون بالآخرة، والذين اتخذوا لله ولداً، هم
 الذين يُنذِرهم الرسل بما أعدَّ الله لهم من عذابٍ أليم.

ومن تدبَّر صفات هؤلاء وأولئك عَرَفَ طريق النجاة، وهُدِيَ إلى صراط
 مستقيم، وعلم أن ما يُبشِّرُ به المؤمنون، وما يُنذِرُ به المكذبون الضالون، ليس بمعزلٍ
 عن أيِّ شأنٍ من شئون حياتهم؛ فإن لكل عملٍ نتيجته، ولكل أمرٍ عاقبته.. والخاسرون
 هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، والفائزون هم الذين اجتنبوا الطاغوت
 أن يعبدوها، وأنابوا إلى الله.

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ
 الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿٤﴾ هُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۗ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ
 اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَنْعَبِدُونَ ﴿٥﴾ فَاتَّقُوا ۗ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا
 إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۗ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ
 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَوَلَّيْنَاكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾^(٢)

(١) الكهف : ١ - ٤ .

(٢) الزمر : ١٥ - ١٨ .

صفات وأعمال - يُبَشِّرُ أصحابها أو يُنذرون - لها تأثيرها في صلوات الناس وروابطهم، ولها أثرها في سلوكهم وأعمالهم، وشئان ما بين مُتَّبِعٍ لباطلٍ، مؤثرٍ لهواه، وبين مُوقِفٍ بالحق، مُتَّبِعٍ له، يجاهدُ في سبيله، ويرجو رحمة ربه.

والناس في أعمال الخير والشر يتفاوتون، وعند الله لا يستوون. ومن الناس من يخلدُ إلى الأرض، ويتبع هواه، ومنهم من ينشدُ الفردوس الأعلى، ويجاهدُ لينالها، ويصيبها بفضل الله..

وهؤلاء وأولئك تقرأ عنهم في كتاب الله، وتُبلِّغ بنتائج أعمالهم قبل أن تكون، فلا تبقى لأحد حجة، ولا لمُضَيِّعٍ معذرة.. ومن طلب الفوز بالأمانى، أو ابتغاه في غير ما حدَّد الله، فقد ضلَّ السبيل.

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾^(١)

ومن طلب الأجر من الله أخلص القصد له، ومن ابتغى الفوز عنده عرف الطريق إليه « وما عند الله لا يُطْلَبُ إلا بطاعته »، ومن رغب في السلعة الغالية قدَّم ثمنها، وطلبها ممن يملكها.. وسلعة الله غالية، « وسلعة الله الجنة ».

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا

(١) التوبة : ٢٠-٢٢.

بِيعِعَكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ^١ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾ التَّائِبُونَ
الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّجِدُونَ
الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾^(١)

أخي المسلم:

أرأيت ما يُشَرُّ به الأنبياء ومن يشرُّون؟

ما رأيت أن العاقبة لا تكون إلا لمن سلك سبيلهم، واقتدى بهداهم، فاحرص
على أن تكون من أولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ
اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢)

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بُشِّرَنَكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾^(٣)

نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً منهم (آمين).

(١) التوبة : ١١١، ١١٢.

(٢) فصلت : ٣٠.

(٣) الحديد : ١٢.

زَيْنَ لِلنَّاسِ قَدْ ابْتَلُوا بِهِ، وَهُوَ زَيْنَةٌ لَا تَدُومُ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً هَآءَ لِنَبْتَلُوهُمْ أَهَيْمُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿ (١)

إن متاع الحياة الدنيا ما جعل لكي يبقى الإنسان فيه، أو يبقى له، وإنما ليكون - بجانب المتاع - عوناً له على معرفة ربه وحشيته ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْعَمَلِ ﴿، فليس ما يملكه الإنسان في الدنيا، أو يُعطى له هو خاتمة المطاف، أو منتهى الخير والعطاء.. لا، هناك ما هو خيرٌ من كل ما زُينَ للناس، وهو ما عند الله ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿ (٢)

﴿ قُلْ أُوذِيكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَالِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿ (٣)

وهذه الموازنة - بل هذا البيان - له دلالة في حث الإنسان على معرفة الأشياء، والمبادرة إلى ما هو خير ﴿ ائْتَسِبُونَ أَنَّمَا نُعَدُّهُرِبِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ﴿ نُسَارِعُ هُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرِيبَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَآءَ سَابِقُونَ ﴿ (٤)

(١) الكهف : ٧، ٨.

(٢) القصص : من الآية ٦٠.

(٣) المؤمنون : ٥٥ - ٦١.

إن منهج الأنبياء - وهو يُحدِّد قِيَمَ الأشياء - لا يطلب من الناس أن يعتزلوا الحياة، بل يجعل الإنسان يطلب الآخرة في عمل دُنياه، فما ضيَّعت دُنياه، ولا تُركت أخرى، بل تنعم دُنياه الناس بما في سعي الآخرة من عمل البرِّ، وتقديم الخير، وتُطلب الآخرة يجب أن يكون في الدنيا من إخلاص القصد، واستقامة السعي.

فمنهج الأنبياء عدلٌ للإنسان في ذات نفسه، بين مطالب جسده وفضائل روحه.. عدل بينه وبين غيره.. عدل في حق دُنياه، وحقَّ آخِرته، وهو يأمر باعطاء كل ذي حقَّ حقه.

أخي المسلم:

أرأيت أن منهج الأنبياء - في تحديد قِيَمِ الأشياء - ليس هجرًا لدُنياه؛ لأنها فانية، وإنما هي - بالإصلاح فيها - زاد العمل كأحسن ما يكون..

أرأيت أن منهج الأنبياء لم يأمر الناس بترك الدنيا أو الرهبانية فيها، وإنما أمرهم أن يعمروها بأبَرِّ الصفات وأكرم الخصال؛ لينالوا عند الله أحسنَ الجزاء.

﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أِمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٥٢﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿٥٣﴾ ﴾

ثامناً: عدم ابتغاء الأجر أو سؤاله

أخي المسلم:

إنَّ مَنْ يدعو الناسَ إلى خَيْرٍ وهو يطلبُ أجراً قد يُساءَ فهمُهُ، أو يُثقلُ غُرْمَهُ. أما مَنْ جاءَ لِيُنيرَ الطريقَ، وينشرَ الرحمةَ، ويدعو إلى مكارمِ الأخلاقِ - وهو شريفٌ، عفيفٌ، نقيٌّ، لا تُجهلُ سيرتُهُ، ولا يُنكرُ خلقُهُ - فإنَّ الإعراضَ عنه - حينئذٍ - جهالةٌ، والصدَّ عنه سفاهةٌ، وتكذيبُهُ تكذيبٌ للحقِّ، وإيثارٌ للباطلِ.

لهذا فإنَّ الأنبياءَ جميعاً لا يسألون الناسَ أجراً، ولا يدعون إلا إلى خيرٍ.. يدعونهم إلى ما ينفعهم في دنياهم وأخراتهم.

وما من نبيٍّ إلا وترى في منهجه إعلانَ قومه بهذه الحقيقة ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﴿٤٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾﴾^(١)

نسمعُ من نوحٍ عليه السلام وهو يُخاطبُ قومه: ﴿وَيَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾^(٢)

ومن هودٍ عليه السلام وهو يُخاطبُ قومه: ﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾^(٣)

(١) الشعراء: ١٠٧-١٠٩.

(٢) هود: من الآية ٢٩.

(٣) هود: ٥١.

ونسمع محمداً ﷺ يقول لقومه: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١)

والإنسانية - من بدء أمرها إلى نهايته - تحتاج إلى من يُعلمها أن قيمة الإنسان في صفاته، وشرفه في أخلاقه، وكرامته في صدق إيمانه، لا في زينته ومتاعه.

الإنسانية في حاجة إلى من يطهرها من دنس الأهواء.

في حاجة إلى من يُبصرها بالعواقب، وهي تريد العلو في الأرض، وتطلب التكاثر.

والرسل الكرام دعاة حق وعدل، وهداة إلى صراط مستقيم، والإنسانية - وهي تستجيب لدعوتهم - تسلم من الفرقة الضالة، والأناية الجشعة، وتأنى بنفسها عن الظلم والفساد.

الإنسانية - وهي تقتدي بهم - تتنافس على المكارم، لا المعارم، وعلى التواضع، لا التخاصم، وعلى الإيثار، لا الأثرة، وعلى إعلاء كلمة الله التي يُنصف بها مظلوم، ويؤخذ بها ظالم، وتُحفظ بها الحقوق، وتؤدي الواجبات.

ومن يدعو إلى مكارم الأخلاق، ولا يسأل الناس أجراً، حري أن يستجاب له، وأن يتبع سبيله، وأولئك - عند الله - لهم أجرهم ونورهم ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(١)

(١) الشورى : من الآية ٢٣.

(٢) الحديد : ١٢.

أخي المسلم: إن القرآن الكريم - وهو يُتلى عليك - بلاغٌ من الله إليك، وفي القرآن بيانٌ لمنهج الأنبياء في الدَّعوةِ إلى الله، فاستمسك به، واهتد بهُداه؛ فقد كان خُلُقًا لرسول الله ﷺ. وثق فيما دعاك إليه، أو أخبرك به؛ فإنه الحق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^(١)

وصاحبه مصاحبة من يرجون رحمة الله؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، وتدبر ما خاطب الله به نبيه ﷺ؛ ففيه عظة وتبصرة لك.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٩﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١٣٠﴾﴾^(٢)

أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لخير ما يُحبُّ ويرضَى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم.

(١) الإسراء : من الآية ١٠٥.

(٢) الزحرف : ٤٣ ، ٤٤.